جـــراح عاريـــة

مجموعة قصصية

أشواق عرباجي

المثقف
للنشر والتوزيع

المثقف للنشر والتوزيع
نوع العمل: مجموعة قصصية
اسم العمل: جراح عارية
اسم المؤلف: أشواق عرباجي
تصميم الغلاف: زكرياء رقاب
رقم الإيداع: 2018/ السداسي الأول
الترقيم الدولي (ISBN) : 978 -9931 – 689 -46 -1
الناشر / دار المثقف للنشر والتوزيع
المدير العام / سميرة منصوري
هاتف / فاكس 033 85 65 75 06 75 49 73 86
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني:
www.elmmothakef.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

الإهداء

إلى قرتا عيني أمي و أبي

فيروز بيتنا و بقية إخوتي

خالي الغالي برابح مصطفى

و إلى بقية أحبتي

أحببت فلسطينيا...

كنا في بلاد الأغراب أعرابا، أنا أحمل بطاقة السائح على صدري سعيدة و هو يحمل بطاقة اللاجئ بقلبه تعيسا...إلتقيته في آخر يوم لي هناك عند جسر العشاق بروما، وكان كلانا وحيدا أنا أحمل أمنية و هو يحمل تنهيدة...شدّته إلي لهجة و إن لم يفهمها عربية و أثارته قصيدة عن أمشاط ليلى العامرية قد أكدت له أني فعلا عربية فجاءني يتساءل هل أنت دمشقية ؟

نظرت إلى عينيه المخملية تنفست عطور البحر الزنبقية ثم قلت :

- بل أنا جزائرية

فابتسم بلحية خفيفة ليرد علي بلهجة قدسية :

-و أنا ابن عمك الفلسطيني

فارتفعت ذراعي لتضم تربة الشرفاء ضمة خيالية...دعاني إلى عشاء إيطالي قبل أن يعرف اسمي أو سر الوشم بذراعي. قبلت دعوته دون أن أعرف كنيته أو سر الجرح المضمد على جبينه...التقينا مرة أخرى فكان اللقاء قدريا و الشراب أجنبيا، و الطبخ رجاليا لكن كلاهما قد بدا مقبولا إسلاميا..ما أسعدتني سوى كلماته القائلة بأن للجزائر له حجزا لا يقبل تأخيرا. لأتنحى بعدها عن ثوب السهرة وأغدو مرشدة و دليلا سياحيا إلى أن افترقنا، و ليس بيدي لا رقم و لا عنوان و لا اسم ثم نمت و مأواي فندق و

نام و مأواه ملجأ، و كان يعتقد بأني من روما أحمل جنسية، أما أنا فكنت أعتقد أني من ذاكرته قد بت منسية، لولا أن القدر قد شاء أن يكون معنا سخيا إذ جمعنا من جديد في أمسية بعد تأخره عن طائرته الصباحية، ليمسي رفيقي بالمقعد السمائي. فعزمت على سؤاله عن اسمه بمباركة ملائكية، لكني خجلت من تحديقاته الإنسية حتى خلته يرى بي صورة فتاة ما بقيت بمخيلته حية...إلى أن استجمعت قواي الأنثوية معلنة عن اسمي قائلة :

-أنا بثينة فما اسمك يا صديقي ؟

سرح بالحقبة الزمنية إلى أرض عذرية ثم قال :

-و أنا جميل ألم تعرفي اسمي يا شقية ؟

تهاوت أسهم العشق على قلبي، لأسقط في الهاوية سقطة كارثية محدثة نفسي -و أنا بالأسطورة مأخوذة أي حكاية تلك التي لا تفارق أحلامي الوردية- و هل يعقل أن أصدق مقولة أجهل صاحبها تخبرني أن التاريخ سيعيد بناء نفسه في !! ثم جاء على لسان قلبي بكلمات طفولية، أنا بثينة و هو ابن عمي الفلسطيني...ليصبح ذلك ميثاقي العشقي...بلغنا وجهتنا معاً.. جمعتنا طائرة و فرقتنا سيارة، لكن شيئاً من عطره التصق بمساماتي الغرامية، فبت أقرأ لليل قصائد وحشية، و أفتح للنهار خيبة أملية، و يوم قررت تقطيع ذلك العقد المرجاني الذي سبق و أن تزينت به لعشائنا الرومانسي، التقيته صدفة بمكتب المدير

الجامعي حاملا أوراقه الشخصية بغية التسجيل بالصف السنوي، و كنت أنا هنالك بنية أخذ أوراقي التحويلية بعد أن تم قبولي بالجامعة العاصمية...غير أنني قد أخذت رقمه و دونته بحافظة هاتفي الإلكترونية...فصرنا للحب نبني جسراً و للحلم نشيد قصراً و لمواعيد الغد نخيط آمالاً.. إلى أن اكتفت الأقدار بنا لعباً، و نضجت الحقائق بيننا نضجاً، يوم حدثني عن ابنة جارته التي عشقها و كم أنني أشبهها، كما حدثته بدوري عن وشم القلب و حلمي في الوقوع بالحب، لتنقلب أرض السياسة بنا ببلوغه نبأ أمه المختوم عمرها موتاً، و أخته الصغيرة الذبيحة قرب البئر المتخذ جثمانها من شجرة الصفصاف مرتكزاً...و ليرمي بعدها بشهادة العلم و تفوقه بالحرف عرض الحائط القومي مقبلا جبيني قبلة الطهارة الوداعية، وهو يقسم لي بروحه الذاهبة إلى الشهادة و هي عشرينية أنه قد تاه بي حباً فهياماً و أنه لم يكن يوما لفراقي مبتغيا ثم راح حاملا رشاشا بيده التي ألبستني خاتم الخطوبة للحب وعدا.. و كالأحلام التي تفارقنا حال صحوتنا من غفوة مآسينا، رأيته يفارق واقعي وهو يمضي مستوردا كابوسا رصاصيا، كما نقول باللهجة العامية الجزائرية تاركا لي كابوسا زمنيا كما نعبر باللغة الفصحى العربية، ليعلمني قبل ليلة من رحيله أن اسمه ما كان يوما بجميل، وقبل أن أعاتبه يخبرني بأنه قد جاء على وزن قتيل كما كان لحكايتنا رمز العفيف مغادرا إلى الجليل كي أفهم بعدها قوله الحكيم.

-أنت نزارية المذهب، و أنا درويشي القضية، فهل ستلتقي يوما

أقدار الرومانسي و الواقعي ؟

تفانت الأيام في تعذيبي حين لم أجد بعده بديلا، ثم تزوجت من رجل صار يدعى أبى جميل و هكذا مرت بي السنين و اليوم لي حفيدة و حفيدا، و أنا أحكي لهما في كل ليلة قصة بثينة و جميل، فإن هما ناما قالت زوجة ابني :

- أمك تعاني من خرافات المسنين، وإنها ستورث أبنائي إن هي أكملت عقدتي **إلكترا** و **أوديب**

...و هاهم اليوم يسألون بين دور المعتازين، عن مكان شاغر ليحجزوا لي بإحداها كرسياً و سريراً، لكن لا أحد غيري ظل يسأل هل مات جميل أم عاش ليرفع علم بلاده بالخليل و الجليل...؟

وصلتك رسالة...

إن في ثرثرة القنوات الفضائية سخرية معلنة، لمن يلبس نظارة ذات أبعاد ثلاثية و ابتزاز مترجم في حركة رثائية و أشعار تلخص بشعارات عاطفية، جاءت لتخفف بدمعها عن عجزنا كأمة عربية لذلك و تفاديا لكل ما رأيته و ما سيكون هاجسا ذو حدود زمنية لعشاق مواقع التواصل الاجتماعية، ثم خبرا ذو خراب منسي لما سيطرأ بعده من أحداث دموية تفوقه في الجدية وحشية، قررت أن أخرس التلفزيون كي أجدني أمام روح الوطنية محاكما بتهمة الانسحاب من القضية و أنا أهم بفتح حاسوبي ليبدأ معي جلسته القضائية المشفرة ببراءة كلمة مفادها وصلتك رسالة..

فتحتها

فكان عنوانها الأقصى من العروبة بات مقصى

أما التاريخ سيبقى مفتوحا إلى يوم تحرر فيه أرضي

المرسل : مبتور الهوية

المرسل إليه : دع جرحك يخبرك من أنت

نص الرسالة...يقول فيها

لنا من استسلام العرب فيكم عزاء، و رحمة الله على موتانا دعاء و بركاته، على محيانا رجاء أما بعد: فاني ما جئتك منذراً بل عن بلدي و أوضاعه مخبراً، بعد ما آلت إليه أحوالنا فما غدوت بمستقبلنا مستبشراً، لذا أرجو منك إصغاء لا بخلا نهايته لرسالتي إلغاء و ستجدني بخطي الالكتروني بإذن الله أكثر وضوحاً، شرط ألا تأخذ واقعيتي على محمل بلاغة بلهاء، بل على محمل معاناة خرساء طغت في أشجانها على أزمة الخنساء و ما أجادت من رثاء كما أرجو أن تغفر لي سوء الإملاء و لتفتح ضميرك مدوناً عليه هذا عن سابق استئذان، مخبرا إياه أنه في قدسنا يا صديقي قد بكى الإنجيل و مريم حين خرج محمد من مسجده مفزوعا ليجد نفسه على مذبح الكنيسة خاشعا مؤذنا، و قبلته وقوف المسيح فوق الصليب مصلوباً...و بكى سليمان حين رأى هرقل في جوامعنا يسكر ضاحكا بهزائمنا، فرحا برجليه أشلاءنا ضاربا كأسه بحضرة قومه رافعاً وهو فيهم يخطب زاعما هنا ينام معبدنا يا شعبنا فتأهبوا لعودتنا ...و في الخليل خرجت هاجر تسعى بين قنبلة و رصاصة، تلهث بحثا عن بئر ماء، تاركة خلفها رضيعا بين ألسنة اللهب يلعب فلم يبلغها أحد أن تسرع لأن صغيرها متعب...و ها هي ذي الأوضاع ما كادت تهدأ حتى طرق الرعب بابي، و أغنامي بالخارج ترتع أخذ مني الغالي و ما أكسب و ما كانت بطون الذئاب هنا بدل، الأطفال بالحجارة يوما تعوض فهل من العدل يا ترى أن يسكن خوف اللحد صبي المهد فينا، و الله

أني لهذا بالعروبة كدت ألحد و قد كفرت بالوطن كما فعلت بالوثن، حتى رأيته على جسدها يجسد على هيئة كفن دون سجود و لا ركوع للقبر، ترك كي أدرك ساعتها أنه تكبيرة شهادة طاهرة وسط ضوضاء الفتن، فرحت بجنازتها كالمعتوه الأبله أصرخ كأني محتج في الشارع و الحشود ورائي عكس تكبيراتها عن خلجاتي أكشف و القول على لساني يتردد

يا أقصى هل غدوت من العروبة مقصى

أم أنهم قد باعوا عكاظ و أضاعوا غرناطة

أولائك الذين عربتهم طقوس إسلامية و بعثرتهم زوبعة جيوسياسية

من يستوردون الخمر من أوروبا معلنين على الحاشية ضريبة أزمة اقتصادية

لا...لا تبك يا أطهر ما على الكوكب من بقعة فقد أضاعتهم قضايا الرجل و المرأة

صب أحزانك علي فأنا سأحمل الليلة الهم عنك و كأني الراعي و المرعى

أنا المشرد بداخلك المجرد من بيتي و أحبتي و كل ما كنت البارحة خلفه أسعى

فقد كان لي فيك موعدا ودعوة و كانت حبيبتي للنعش قربانا

حيث التقيتها أول مرة عند مفترق الممرات هناك

بتلك الأزقة الضيقة المؤدية إلى طريق الآلام

في الحي العتيق أين علقت ذكرانا

فكيف أعود إلى أبي و ماذا أقول أنا

لا شيء بيدي غير منديلها الملطخ بدم كان سيسري في عروق ابنينا

لولا أن الموت قد اغتصبها أمامي و تركني زوجا مخبولا

أأخبره أن الذئب لا يأكل خرفانا

أأخبره أن دم العذراء كان له أعذب و أطيب ملاذا

وهل سيصدقني إذا جزعت وحدي تاركا خلفي إخوانا

ذهبوا لجمع الحنطة لموتانا

لا لن أقول شيئا فأنا عائد إليها بعد أن أرجم الحجارة بوجههم عصيانا

أنا آت إليها لنغني على شرفة الدجى ألحانا

أنا و هي في القبر سنجد للحياة مكانا

ففي الخليل لنا باب ينفتح على بيت يدعى مأمن الله به مرقد مريح سيرعانا

فيه ستعنون أسماؤنا قضية لمن يحط الورد على ضريحينا فلا ينسان

كتابة الرد...

أما أنا يا صديقي فقد قالت لي:

خذ من دمي و ارسمني، فنحن أمة لا تعترف بفنانها إلا إذا أبدع في تعذيبها، و خذ من أنين المساجد موسيقى التكبير و قل اليوم سيضحي إبراهيم بإسماعيل في سبيلي، فنحن أمة لا تطرب أوتارها إلا لصرخة ذبيح و قتيل، إرث نسبناه إلى قابيل و هابيل...و اكتب عني شعرا خالدا مخلدا مأساتي لا بغية الشهرة و التصفيقات، فقد يقرأه بعدك علماء التاريخ و الباحثين بين الأنقاض و الآثار من سينتهون من بقايا الآشوريين منتقلين إلى خراب السوريين المتولد عن أحزاب قد نسبت نفسها للدين ليحفظوا في متاحف من هم بالأمر معنيين و بالبقايا الأثرية مهتمين يوم يقسمون باليقين أني قد كنت موطأ حضارة، فيا لها من خسارة...ثم خبئني في صدرك كما تخبئ رغباتك و أهوائك، و أنت تعبر شوارع غربتك متخفيا خائفا من انعكاس ظلك و لتعذرني إذا سبق و لسعتك بسعير أرضي، فأقدام الأمهات جنة و

إن كانت مغتصبة كي أغفر لك جهلك إذا كان حرف اللام في اسمي شوش عليك رأيت كلمة حب خبأتها لك كوردة منسية بين ثنايا كتاب قديم، يا حلبي المولد و النشأة...و لتقف على ذكرى صغيري في المنفى البعيد سائلا إياه في خجل إن كان شبحه مازال ينعاني...بعدما عرف أن القضية أكثر تعقيدا من قصة كنعاني بعدما تحول الأمر إلى إرهاب إخواني

التوقيع...هل عرفت الآن من أكون؟

أغلقت الكمبيوتر..أخذت معطفي و مضيت..مشعلا غليون غربتي و أنا أغني بلغتي العربية لسوريتي جرحي و ندبة التاريخ القادم في سعال الكتب الورقية...

موطني...موطني

ثم عكف صوتي عن الاسترسال حينما دمعت عيناي لعجزي عن السؤال

-هل أراك سالما منعما، و غانما مكرما

فلا أنا أجرؤ على الفعل، و لا هو يتوعدني بما أبتغي

بقايا مقال صحفي...

مختصر حياتنا نشرة إخبارية.. تبدأ بخبر الولادة و تنتهي بنبأ الموت.. تتخللها أحداث كثيرة تختلف باختلاف محطاتنا القدرية، هذه كانت مقدمة مقالها الصحفي، تلك الشابة البهية المتنقلة بقلمها بين الأوطان العربية، من أقصاها المصهورة أراضيها بأسلحة صهيونية، إلى شامها المنتحل مغتصبيها من الإسلام شخصية...تاريخ الحدث وجدته ممحيا، أما عن اسمها فدعنا نستره بكلمة صحفية عمرها عشرون صدمة. إذا حدث و أنقصنا منه عشرية الأحلام الوردية، أما عن وجهها فبقايا صورة منسية، أضيفت إلى قائمة الضحايا البشرية بالنسبة لبلدها، فما حددت له جنسية بعد جنسها الأنثوي، لا شيء مؤكد غير أنها قد كانت مراسلة عربية وقد نسبتها بذلك لخطها المرتعبة تعرجاته بالورقة المجعدة المخلفة لآخر مقال لها على شكل وصية مسبوقة بأقصوصة أسميتها بدلا عنها الضحية بعد أن ختمت بها نشرتها الحياتية ...

على لسان شهيدة المهنة سأحكي لكم قصة امرأة أخرى سورية سبقتها إلى المجزرة، بعد أن غادرت بيتها و ظلال الجور رايات

سوداء تغطي الحي ...كان ظاهرها عباءة عريضة الحشمة، و داخلها أضلع ضيقة النفس لاحقتها و زميلي بالمهنة حاملا كاميرا رقمية فما أن لمحتنا حتى سارعت بالخطوة مهرولة لحقنا بها بحسن نية وفاء منا لمحطتنا الإخبارية نسينا أننا هنا كالذباب مصيدته جيفة مخبأة بين الركام، نحن الذين ننبش عن الموتى خارج المقابر أولائك الذين لم ينصفهم الموت كما لم تفعل الحياة معهم من قبل إلى أن توارت عن الأنظار، ليدلنا عليها صوت رصاص قد أخرص صديقي حين قال :

- أمي قالت لي أنها في انتظاري و لا أريد أن أكون بغير ما يرضي ظنها مغيرا قراري

فقد كان آخر العنقود ببيتهم و أطيبهم خلقا و خلقا و أبرهم بوالديه، حين كان لم يزل حيا تبرأت رصاصة طائشة من دعوات والدته ثم لعنت حلمه في أن يكون صاحب أخطر مشهد عدواني، كي ترفع شهادته إلى السماء و يعرض مشهده كضحية مستورد نبأ مقتلها على الهواء من دون جثة أو هيكل عظمي، و قبل أن أجاهر في الرثاء أتاني منهم اثنان جعلاني أكره منظر اللحى على وجه الرجال، أنا التي كنت أقول لوالد صغيرتي مقتبسة مما نسب إلى أمنا عائشة في قولها سبحان الذي زين الرجال باللحى، فقد أخذوني صحبة من كنت أنوي سؤالها عن الأحوال لتصبح نجاتي أمرا محالا، بعدما حملونا بسيارتهم معصوبتا العينان مغصوبتان إلى سجن معتم المكان، مصبوغ بطلاسم العدوان عليه بقايا

الحرمان من ميتة عادية آثار دماء نساء و رجال، وما أن فتئنا نلتقط الأنفاس حتى أتى إلينا أحدهم، نظر إلينا نظرة استهجان ليسحبها من أمامي كما تسحب إلى المجزرة الأغنام، كي أبيت على صوت عذابها و السوط يزيد عليها الحال رنين جرس قيامة تعلن ختام الكتاب ليرمي بها بعد ساعات قضتها ظهرا صحبة العذاب مجلودة الجلد مفقوعة العين، مخلوعة النهدين مغتصبة يا ابن فلان فهل كان لها من حقوق المرأة حق لتسأل جمعياتها بأي ذنب كل ذلك العذاب كان، لو لم يكن زوجها قد مات مقتولا فلم تملك لشرعية وليدها بعده برهان...سقطت أمامي أنا التي أصابتني الصدمة بسكتة لسان، و العالم من حولي يعاني من عمى الألوان...و بعد ساعة من أنين المظلومة أمامي، اقتحم رعبنا آخران حملاها إلى الساحة المخربة التي كانت في السابق بنيان ثم أمروا برجمها، ليغدو الهرب استحال يرددون من الأقوال ما يدعون به الإيمان و الملائكة حولهم تلعنهم مع روحها الصاعدة إلى ربها المتسائلة على أي أساس رجمت ؟ و بأي قانون قبلي روحها وئدت ؟ و أي إنسانية هذه صغيرها قد يتمت ؟ فهلا أجبتموني عن أسئلتي يا رجال...أم قد حرمت عليكم الفتوى فيما لا ترضاه حرية الأحزاب و الأديان بعدما صارت فلسفتكم تقتصر على قصر ثياب النساء

أتعلمون ماذا الآن ؟ لقد قال لي زعيم المقصلة، وهو قاتل متمرس على الذبح بالسيف و مختلف أنواع السلاح، حان دورك أيتها الحسناء...و أنا أقول لك يا أنت لا تقصص كتاباتي على

صغيرتي، و لا تخبرها بأن الذئب قد أكل ليلى في القصة فقط دعها تعيش الأحلام، و لا تؤذي نزارا في قبره، لا تقل له أن بلدك امرأة مصلوبة النهدين قصيدة قد اغتصب حبرك فيها العدوان، أما بالنسبة لي فلا تقلق فأنا الآن في قبضة داعش، أما أنت أيها العربي فدع عنك و عش..

خطيئة ذلك المساء...

في ذلك المساء المنسية ذكراه، عند المارين عليه سلاما المرفوعة خطاياه للخاطئين فيه ندامى قد أكل كلاهما من شجرة الخطيئة فاكهة، ثم شرابا نخب إبليس في غفلة من نشوة قد تحولت إلى نزوة عابرة، لكنها لم تعبر سوى طريقها إلى ضفة غد آخر يقتحمه مساء جديد، مستنسخا خطيئته ليكبر بها على مهل...لقد كانت امرأة ناضجة كما لم تكن ساذجة و لا معذورة، بل غدارة و ماكرة، إذ لا عذر يبرر ما فعلته بزوجها كما لا دافع و لا مسوغ يبرئان ذلك الذكر و ما فعله بسيده الرجل الغائب عن بيته، سعيا وراء قوت أهل داره حيث كان كلاهما يحجبان الشمس بستار غرفة حريري يمارسان الاحتراق خيانة أباحتها لهما نفسيتهما المريضة بفراش الزوجية الطاهر المدنس، يكاد الغثيان يتملكه من منظر زانية و زاني قد أسرفا في المعصية حد المتعة و من خلف الغرفة المظلمة الأرجاء و الأفعال طفل صغير يدعى ابنها ينظر من ثقب باب إلى ثقوب تكبر بقلبه ثم نفسه عقدة...عقدة

يلبس السادية و المازوشية معا ازدواجية أزمة نفسية قد نقلت إليه من حمى الطفولة الحائرة حالما أدرك أن أمه مع غريب ترفع الضحكة و هو بالخارج يبكي أباه، خشية أن يدفع الضريبة سكوتا أو العقاب بوحا...ولد يلقن عقله دروسا في الفضيحة و الخطيئة ثم بعد ساعة المصيبة، عندما يرى والده مقتحما الباب على حين غفلة لن يتساءل هل أبلغه الجيران سر مأواه أم جاءت به الصدفة، أو أنه قد أتى بحكم وظيفته بقسم الشرطة أو كما قالت عجوز قد مرت بالجوار بعد أن أخذتهم الصاعقة بظلمهم إنها حكمة الرحمن يا أهل القرية فاشهدوا الحسرة، و خذوا العبرة يا سكان...طبعا هو لم يجب عن أسئلة القاضي و استفساراته بشيء، فقد كان طفلا صغيرا كما لم يوقع سوى شهادته الكبيرة....و هو يردد قائلا:

- لم يكن أبي امرأ سوء و لكن أمي قد مسها بشر و قد كانت بغية...

لينتقل بعدها إلى غده هل سكن دار الأيتام أم بيت أحد من أقربائه ؟ لم يجب أحد في القرية التي ترعرع فيها كثرت الإشاعات كما قد أكد خبر واحد إذ قيل و أجمع القوم قولهم على أنه قد كبر في خطيئة ذلك المساء..

هلوسة الانفصام حبا...

و جاءته في الليلة الظلماء الضيقة عروبة أزقتها و هي تمشي على استحياء، تلتفت بين الفينة و الأخرى خشية تقلبات أسرتهم ذات اليمين و ذات الشمال، و إن كان حارسهم كلب قد غادر إلى الجوار بحثا عن قمامة سخية القاذورات فهي لم تعرف كيف تسكت همس الوسوسات، و كان هو هناك وفيا لموعدها عند الأنجم الممتدة مدا و جزرا ينتظرها يقطف زهر الرمال يرفع قليلا من حياء السروال، متفحصا استقامة الأزرار بالقميص القمري البياض معتدل الشكل و المزاج و بمعصمه ساعة للأزلية المطلقة و ابتسامة تستعد لبهجة لقائها تلك المضطربة حركاتها كشهرزاد، هاربة قد أتعبها كل ذلك السقوط الحر و ذلك الاختلاط المرعب ما بين واقع القصة و هلوسة المشي ليلا على بساط الأوهام، بعباءة الحداد السوداء و خمار الأنوثة رداء مفروضا للشرف المزعوم، بمدينة تبيع شرفها بأسواق البيوت

النهارية ذات الأمسيات الليلة...و أتته إلى حيث أرادها أن تأتي فكان هناك لكنه لم يكن، فهي لم تسأل أمسها ماذا حدث بعدها إذ لا ماضي يتكلم و لا حاضر يتمزق و لا غد ينسلخ عن أمسه البعيد كان أو القريب، حتى أنها قد خلت إلى نفسها و هو يواريها ظهره فقالت :

- لطالما كانت أزلية الحزن الأصدق إبداعا ...

كي يلتفت إليها مندهشا مفلتا -من شفتيه اللتان كانتا تبعثان إلى قلبها موسيقى ناي- ....آلته المترددة ألحانها على مسمعيها و المكتوم صوتها عن عالمهم وهو يملي عليها شعرا متفجرا من فجوة صدره الممتلئ خذلانا، لتبتلى بمسائه الشاعري شعورا حتى اشتد بها الوهم واقعا، فغمرته دون أن تفعل مجتنبة قبلته خجلا قبل أن يسأل و لقد همّت به و همّ بها حتى اشتمت رائحة قميصه البحري، لكن المعجزة قدر لها أن تفشل إذ لم يشفها الموج من صدمتها و هو يرتطم بوجهها ولم ترتد بصيرا بل سقطت أرضا ذات القامة القصيرة، إلى أن رآها رجل من المدينة المظلمة قبل أن يسكر فاعتقد أن حورية قد تمردت على البحر، فكان مصيرها أن تدفن ليكتشف في النهاية أن الخمر ليس وحده ما يسكر ساعتها ابتسم لسذاجته و تعوذ من شياطينه، ثم بعثها إلى مصيرها الظالم ليتوج بعدها بوسام الشهامة المنحصر لقبه بأطراف مدينة ضيقة لا ترحم...إذ لم ينتبه أحد ليلتها ولا نهارها ولا بعد يومها أو بعد غدها أنها قد كانت تعاني هلوسة الانفصام

حبا، دون أن تغفل عن حراس الشرف العربي ليلا، و لأنهم أمة تخجل من المعالجة النفسية كما تخشى من تلك الخدوش السطحية إن هي لحقت قلب امرأة فانقلبت الآية إلى حكاية شرف عائلية، ثم مدنية أتو بها إلى مستشفى المجانين بعد أن تأكد الأطباء المختصين من جنون قلبها حينما أصابها سهم الحب المبتور بلا مسكن أو مهدئ بخلل في نمط المنطق الفكري و الإدراك الحسي مما جعلها تفقد الاتصال مع الواقع الملموس، منتقلة إلى

المحسوس المعكوس في تقلب نفسيتها المخلصة إلى شبحه ذلك الذي لم تعرف كيف تتخلص أو تتعايش مع صدمة موته بليلة زفافهما...

شوكولاطة ميرا الضائعة...

...لا شيء محدد أنا الآن مستلقية على الأريكة تنام فوق بطني ميريا –أضحك من قوله – ثم أجيبه لا إنها القطة كم مرة علي أن أخبرك أن ابنة أختي تدعى ميرا أما آن لك أن تعقل أيها الشقي...وأنا أيضا أحبك

ما معنى أحبك...؟-

صوت ناعم كموسيقى حفيد التشيلو يحمله الهواء يسألني و لست بحاجة إلى النظر لأعلم أنها ميرا الصغيرة قد جاءت لتفاجئني

بسؤالها بعد أن أقفلت الخط مع خطيبي حسام...و هاهي ذي قد قفزت محتلة مكان القطة، واضعة رأسها المثقل بأسئلة النضج المبكر فوق صدري، هذه الطفلة التي بات أهلها في حيرة من أمرها بعد أن قل كلامها و أكلها و كثرت وقفتها عند تلك النافذة الزجاجية المطلة على نفسية الشارع المتغيرة أحواله بتغير الأوجه المتجددة يوميا أو القاطنة فيه على حد السواء، و التي لا تجسد سوى شاشة سينما ثابت المكان الذي تدور فيه أفلامها متغيرة شخصيات حكاياتها، بنظر هذه الفراشة و أحيانا مشاكلة لسابقها ...لا أدري ما أقوله لها خاصة و أن لغة الأطفال كلما زادت بساطتها ازدادت علي صعوبة الشرح فيها و بالأخص بمثل هذا الموضوع...و ها أنا الآن أعبث بخصلات شعرها الذهبي، محاولة شرح الفكرة بلغتها فلا يخطر ببالي سوى أن أقول أن الحب هو الدفء العائلي الذي منحه الأقزام لبياض الثلج...هو تلك اللحظة التي جاءت فيها العرابة إلى سندريلا لتمنحها حق السعادة...ثم أنه إخلاص الأمير لها ببحثه عنها و عدم تخاذله أو تقاعسه في الأمر...لتقاطعني متسائلة :

-أهذا يعني أنه ينبغي علي البحث عنه...؟

-و من هو ؟

سألت من جديد دون أن تجيب عن سؤالي :

ماذا عن تلك البطة الرمادية القبيحة التي كان يحتقرها الجميع

للونها ليكشف في النهاية أنها بجعة بيضاء جميلة -

فأخبرها أن قصتها تعني بطريقة أو بأخرى أن الجمال داخلي، وأنه علينا أن نحب المرء كما هو ثم من يدري كيف سيكون هذا الشخص غدا دون أن أعلم أنها تحاول استكشاف نظرتي للأشخاص و ما إن كنت عنصرية أم لا فلا أحد مكاني له أن يتوقع من طفلة بعمرها أن تلعب معه لعبة محلل الشخصيات، لتفصح لي بعدها بسرها الصغير قائلة :

أهذا يعني أني واقعة بالحب وأنه مع مرور الزمن ستعود شوكولاطتي السوداء و ربما تتحول إلى شوكولاطة بيضاء أيضا ؟

لأتعجب من سؤالها ريثما أسأل لعلي أفهم

عما تتحدثين يا صغيرتي

فتخبرني بأنه قد كان بشارعهم طفل صغير أسود البشرة أجنبي الهوية يتخذ من زوايا المكان بيتا، و من أموال المحسنين قوتا، و من الملابس المنتهية صلاحيتها سترا، مستبدلا أحلامه الطفولية بشقاء المسؤولية حين لم يجد نفسه بحاجة إلى أفلام كرتون لتنبهه بقضايا الفقر و الجوع و الحرمان و هو يعايش الأوضاع مؤمنا بالشر و هو يتمثل له ببشر يحتقرون وجوده متفننين في شتمه قولا و أحيانا فعلا، و غالبا نظرة مع بقاء القليل من الخير بهذه الدنيا متجسدا بنية من كانوا يتسابقون على الفلاح و من يؤمنون

أنه لا فرق بين عربي و أعجمي و لا أبيض و أسود إلا بالتقوى...ثم تقول لي

و الآن أنا أفتقد وجوده هنا لم أره منذ حوالي هكذا

فتحت أصابعها و أخذت تعد بأرقام عشوائية الترتيب، لولا متابعتي الدائمة لحالتها و استشارتي لأهلها لما عرفت أنه مختفي منذ أسبوع...نزلت دمعة مني وشهد البراءة يقطر من عينيها العسليتان و هي تسألني قائلة

أتعتقدين أن الشمس قد أذابته لأنه حبة شوكولاطة سوداء صغيرة ؟ أو أن هذا الشارع الكبير يخشى على نفسه من التسوس أكثر مما يخشى على جسده من الأوبئة المتفشية فيه ..؟ ثم أتعتقدين أن تسكع شكولاطتي بين أرصفته قد أقلقه فقام بالتخلص منها كما يتخلص عمي البقال من المنتجات المنتهية الصلاحية...و غيرها من الأشياء الأخرى

ليغدو حديثها الطفولي الملامح الكرتوني التشبيه، صفعة تجعلني أعيد النظر حقا في تلك الإنسانية الموشكة على الانقراض متصلة بحسام الذي قرر مساعدتي في مباشرة البحث عن شوكولاطة ميرا الضائعة....أو كما يناديه هو شوكولاطة ميريا المفقودة، نظرا لخلطه بينها و بين القطة اسما و دلعا...ثم من يدري كم من حبة شكولاطة ترقد في شوارعنا ثم تغادره دون أن ينتبه أحد إلى وجودها أو يشعر بالافتقاد إليها أثناء غيابها...

أنثى الخريف...

...أذكر أن الطريق المفضي إلى هناك قد كان مستقيما، تصطف على حافتيه أعمدة إلهية الظل تراقص فراشاتها الحرة المتطايرة، حفيف الخريف خفيفة معلنة سقوطها على الرصيف وهناك على البعيد نافورة ماء حيث يرمي الحالمون نقدا يحمل معه معتقداتهم السخيفة إلى حين عودة أطفال الشارع المقابل من يشترون من أمنيات العشاق رغيفا...مررت أنا وبأذني معزوفة و بحقيبة يدي كمانا قديما فلم أسمع وقع أقدامها و نبضاتها السريعة...إلى أن

اصطدمت بي لتوقع مني الجريدة، أو كما دعتها هي الصحيفة، و قبل أن تسألني السماح سألتها من وقتها قليلا فلبت طلبي التافه عن حسن نية، دون التنبيش في خباياه عن سيئة أو رذيلة، ثم رحنا نمشي معا إلى ضفة البحيرة حيث تركتني بعدها شريدا، و على الطريق الطويل الذي تقصر مسافته بصحبة امرأة مثلها كشفت عن هويتي المنسوبة إلى هوايتي الموروثة فعلمت بأني عازف و عازب و عابر و حائر، و عرفت أنها أنثى سمراء و ثغرها حمراء و كلماتها من مداد الشعراء، و من شدة إخلاصها بلهاء..جلسنا على المقعد دون طاولة دون قهوة و دون شمعة.. كانت البحيرة لوحتنا المائية و الشمس ضوءنا الخافت، و الطير المهاجر عازفنا المغرد و الغموض الجامع بيننا قدر غرباء، جمعتهما المصادفة كانت بحقيبتها ملابس و أحذية تتخذها كمؤونة فقد أخبرتني أنها هاربة سألتها : مما تهربين ؟

قالت : من هروبي الدائم إليه

وقتها فقط سمعت الكمان يناجيني سمعت اللحن يبكيني، و كان لصمتي أمام عينيها دهشة فسألتني :

-هل لدعوتك رغبة محددة ؟

فقلت :

- أرجو بك إلهاما و مقطوعة

ابتسمت فكانت ابتسامتها مفتاحا لسلمي الموسيقي، حاولت الرحيل فأغويتها بأن أحولها من كيان أنثى إلى عزف سيرينادا..نظرت إلي بروح متعالية ثم أخرجت لي من معطفها قلما مبتكرة من قميصها الأبيض الذي مزقته من أجلي ورقة بعد أن رشت عليه البعض من عطرها الممتلئة خمرة حوضه إلى شفاه نافورته الأنثوية الصغيرة ثم قالت :

هيا دون كل ما تهذي به يا مشتهي الشهرة و الأضواء

وقفت فسألتها

إلى أين ؟

قالت :

الآن سأصمت لتسمعني سأمشي لتراقصني، سأمضي حتى تراني و سأغيب كي تجدني قلت :

كيف ذلك ؟

قالت :

إبداعك في إعادة خلقي ، فنُّك في حسن تخلي، و حقيقتك المطلقة في جهلي فالعزف ما هو إلا تمرد الأرواح على هيكلية الأجساد، فالأصوات على خصر الآلات ثم أمسكت بيد حقيبتها المتخذ لونها حداد قلبها و راحت تجر خطواتها المثقلة بتعاسة تمردها في

وجوم خشية أن يلاقيها صحبتي ليل بلا نجوم، بعد أن تركتني جليس لحظة خيال مشتهى أراقب فيها طيفها المصاحب لبقايا عطرها وهو يرمي بحذائها البني السمار الأنيق مثلها إذ أنها ما تركت المكان إلا لتسير على ضفة أنغامي حافية و لتسبح بين شهقات الكمان من كبريائها عارية كما لم تفعل قط في الواقع...كانت السماء قبل غروبها بعيدة مثلها عندما صرخت و ناديتها ما اسمك ؟ ما اسمك...؟ لكنها لم تسمعني و لم تستدر لتفتعل ذلك لم يكن الصدى حاضرا كان الكمان وحده شاهدا، و كنت قد أخرجته من قوقعته الغبارية بنغمة غيابها مأخوذا، ثم رحت أعزف لحنا طويلا إنه اللحن ذاته الذي حولتني معزوفته اليوم في دار الأوبرا العظمى من رجل عادي إلى مشهور على المستوى المحلي قريبا جدا في نطاق عالمي، أين شرعت تصفيقات الحاضرين تهتف نيابة عن أيادي المستمعين خارجا، و أنا خلف الستار محموما أخاطب عزفا كان ميلاده بجمالها مأخوذا و اسمه لاسمها منسوبا متسائلا للحن و الكمان مخاطبا أترانا سنلتقي أنا و هي يوما ؟ و إن التقينا فهل أناديها مثلما أسميتك أنثى الخريف ؟ أم باسمها الذي أجهله و ما عرفته يوما ؟ ثم ألقيت على الكمان نظرة أخيرة مفصحا له عن رغبتي الدفينة قائلا:

يا أنثى الخريف أتمنى أن يكون لنا في الخريف المقبل موعدا قريبا، و إن كان التوقيت على قلبي بعيدا

خيانة بريئة...

كان واقفا عند ساحة الغروب الأخير بتلك البلدة المكدسة أزقة شوارعها بذكرى ماضيه ، طفولته...مراهقته...شبابه و ساعتها

بعنفوان الغياب مستقبلا تلك الليلة باكتئاب، لا يقل عن سواد السماء شيئا واقفا هناك بتلك الحديقة المضيئة قناديل فرحتها الاصطناعية حيث وضع وردة حمراء طالما كان يهديها شبيهتها بعد كل شجار عشقي وسط تلك الباقة الكبيرة من الورد المصطنع كدليل على وقوفه هناك في لحظة انكسار ذاتي راح يعيشها هو بالخارج مستكملة طقوسها هي بالداخل منزلة دموعها بحرقة يحسدها البعض عليها بتأويلها قطرات ندى وليدة فرحة عروس، و هي ترقص على الأرض لكأنها على الجمر حافية القلب ليقينها بأنها تقوم بتشييع جنازتها بحضرة ابتسامة مغتصبي فؤادها، غير متسائلة بأي ذنب قتلت قصة حبهما لأنه و قبل سنة فقط كان قد تقدم لخطبتها، ذلك الذي يخطب كل ليلة باسمه قلبها قبل أن يقيم صلاته للدعاء نسيانا و سلوانا، غير أن أهلها لم يكونوا من أولائك اللذين يقبلون بأقل منهم مرتبة و جاها، فهو لم يكن سوى عاشق متواضع الحال عالي الأخلاق طيب السمعة بين الناس، و لأن أحلامهما لم تكن بحاجة إلى علاء الدين بأوصافه الفيزيولوجية، بل كانت بحاجة أكثر إلى مصباحه و عجائبه الأسطورية قد أعلنوا قرانها على من يساوي عمره عمرهما معا إذا حسب الأمر بعملية رياضية و ثروتهما معا إذ حسم الأمر بصفقة مالية...لتلحق به من بوابة فرويد السرية، حتى لا ينتبه لها أحد و هي تغادر الصالة مرتدية ما اعتبرته بغيابه ثوب كفن، و ما اعتبره هو بفراقها حلمه الأبيض المسروق منه على حين صحوة...فانتبهت و هي في طريقها إليه لرسالته الخفية، و هي

تضم الوردة قبل ذبولها كي تفك لغزها إذ كان غرضه أن يخبرها من خلالها أن حبه وحده الحقيقي، بين مجمع الحضور المتواجد داخل السهرة رفقتها و لأنه صادق المشاعر فان قدره أن يذبل قبلهم هو الذي لم يحتمي من الحياة بأقنعة مالية مقنعة مثلهم...ثم راحت تقطع الشوارع، مهرولة عروسا شاردة متجهة إلى عنوان بيته محققة أمنية لم تكن من نصيبه...و هو يهم بفتح بابه مغادرا حاملا حقيبة خذلانه متنازلا عن نفسه المسجونة بين ماض جدران منزله و مسقط قلبه، ليصدم برؤيتها أمامه حتى بفرحة لا أبجدية لها يوقع مفاتيحه، حاملا إياها غير مصدق لما تراه أعينه فمن كان يعتقد بأنها ستشاركه غياهب الهرب، ثم دون أن يسألها لماذا؟...كيف؟...متى؟...أين؟...فتح باب سيارته البيضاء بديل الحصان في القصص و الروايات و ركبا معا...تاركين خلفهما مخلفات موروثات عقائدية لينتهي الأمر بطلقة نارية صوبها زوجها المشتري لجسدها نحو زوجها المختار من طرف قلبها...فاستيقظت من الحلم مفزوعة و هي تصرخ باسمه منادية، كي تفتح عينيها على كابوسها الآخر المقرر لها أن تعايشه أبد الظهر حين وجدت زوجها مبتسما وهو يحاورها مهدئا معتقدا بأنها قد باتت تهذي من فرط تعلقها السريع به، فهو لم و لن يعلم يوما أنه و من تحب يتقاسمان الاسم ذاته و هي لم و لن تعرف أبدا إذا كان القدر سخيا إلى هذا القدر من التشابه المنقذ لها من التأويلات التي كانت ستلحقها إن اسمه كان مناقضا لاسم زوجها أم أنه قد كان شقيا قد شاء العبث بها و بمصيرها كما يعبث

بقلوب غيرها من الإناث مبدأ العادات و التقاليد و الإيديولوجيات...

ثم أنها لم تقل شيئا، تفحصت الوردة النائمة تحت وسادتها و التي ظلت وحدها الحقيقة المقتبسة من حلمها فوجدت بأنها مثلها قد أخذت ملامح الذبول في اجتياح ربيعها الهش....

من حكايا ايفل...

لضوء البدر نور مكتمل و لسوناتا القمر عزف مسترسل، ذئاب الشوق بمثل هذا الوقت تفترس و أنا و أنت قرب إيفل نرقص لنهر السين خرير شعر على همس المغرمين يتجسس، و أنا و أنت و مدينة العشاق مما نحترس قلت لك :

من قصص وهم بغرف الفنادق قرانها تعقد-

: فقلت لي-

لماذا تحملين بداخلك كل هذه العقد ؟-

لأرد عليك بقولي :

لبيتك أريد أن أدخل و أمك على البوابة تزغرد -

كي تفهم بدورك بأني للزواج ألمح...وفاء لقصتنا التي أمام الخمس سنوات الماضية، كانت للعاصفة معطفا تنسج لتقينا من عواصف قاتم بردها للفراق متحمس..فتركتني و الظن لجسدي الصغير يلتهم، ثم رحت تقاطع طقوس من لروميو و جولييت قد أخلصوا و كل من رأيته بالحب متيما، فكان هنالك شاب يفوقك رومانسية و لا يقل عنك كرما باقة ورد أحمر بيده يحمل حتى قبيل موعد تقديمه إياها لمحبوبته، أخبرته من الغزل أسطرا لها على قلوب النساء سطوة مقابل وردة واحدة يا من كنت لمواعيدنا من بساتين العشاق تسرق، ليلبي دعوتك و من سذاجتك حبيبته تسخر ثم ذهبت إلى ذلك الشيخ السبعيني ذو اللباس الإسباني و

الجيتار الخيالي الواقف على ذكرى ماضيه الغرامي، فشرعت تقص عليه بلغته كم أنه يشبه جدنا العربي عند وقوفه أمام السراب الإبداعي مباشرا خطبة الطلالي في تدوينه لعزائه الحنيني، مسترسلا بحيلة الثعلبي كن جدي ليوم واحد يا غربي و ساعدني في الحصول على معذبتي ثم انك لم تشر إلي ...فكان شرطه أن تأتي بعجوز تصاحبه في مشيه العكازي ليفهمك أنك كنت بظنك ساذجا، و أنك ستبقى أنت ابن العربي فهو ليس بجدك بل مجرد أجنبي و ليؤكد كذلك قولي الذي قلته لك يوما في جنازة من ماتت، لتلحق بالذي قتلها حبه أن للوفاء عناوين محدودة...فسخرت من تفكيرك مستسلما لما اشترطه عليك، راميا زهر النرد كي يسقط عند أقدام تلك العجوز الضعيفة البنية القوية الذاكرة، و كانت بدورها تقعد لوحدها في لمعة عيونها تخفي أسراها إذ لم يكن بجوارها ولدها الملتحق بجيوش وطنها. هو الذي كان دائما يعدها بالخروج كل ليلة بصحبتها ليجالسها قرب إيفل و يسامرها فحدثها عن قصتنا، و طريقة تعارفنا و مدى طرافتنا لكنك لم تقل لها أني أنا المنتظرة كما لم تذكر لها اسمي فيا للحسرة...كنت في اللعبة ناجحا معها إذ استطعت بسهولة إقناعها بعد أن رأت فيك شيئا من ملامح ابنها...جمعت بينهما ثم جئت بهما و لهما من البطيء إرث السلحفاة في مشيتها ليكون الزمان بوقتها عدونا...عدت إلى المكان فلم تجدني، سبقتك سيارة إسعاف حملتني كنت مريضة بالقلب، و مثلك لم أكن أدري أن غيرك يوما سيسكنني لكن المرض على غفلة من انتظاري، قد

احتلني و بدلا منك فاجأني..بحثت عني فلم تجدني غيرت عنوان بيتي و رقم هاتفي أردتك أن تحيا مع امرأة لن تحبك يوما مثلي، لكنها حتما قادرة على إسعادك أكثر مني، بعد أن أعلن الطبيب وفقا لنتائج التحليلات و العملية تقريرا طبيا قد جاء به من الأنباء ما أفزعني..و هاهي ذي السنوات مرت و لم تزل تقطن بداخلي و أنا اليوم أبكي.. رأيتك هناك تماما حيث فارقتني، حيث داست أقدام المارة على وردتك التي لم يقدر لها لقائي أين كبرت خيبتك بقدر شقائي.. رأيتك و أنت تحمل بين ذراعيك طفلة تحمل اسمي، و ببنصرك خاتما يحرمني و منك يحرمني و أنا هنا أحمل طرفة ثوبي كي أعبر فوق أرض حبي، و نسيانا ظننتني قد نلت منه ما يكفي لأجعلك منسيا ضمن قائمة الأمس لولا أن رؤيتي لك قد كذبتني مستديرة رحت موالية لك ظهري حتى لا تراني فتنادي باسمي، فتؤلمني ابنتك أكثر بردها أجل يا أبي و لأدرك في النهاية أن لي مع إيفل حكاية عشق كان ختامها يعاكس ما سمعته عن مدينة العشاق فيا لحظي و خيبتي كيف تسنى لي التحايل على نفسي بنسياني لعروبتي و نهايات الحب العذري..

لا تخبر أحدا...

لا تخبر أحدا.. قالت لي بعدها و الهمس بصوتها الملحون بحة وشوشة جريمة مفتعلة، أغلقت ملفها بعد أن فتحت شهوة قلبي عليها و يا ليتها ما فعلت تلك التي خطت بأناملها طريقها عبر ثنايا وجهي و بداخلي، مراهق نابض للمستها تلميذ مطيع للدرس مستجيب إلى أن حولتني ورقة بيضاء بين راحتيها، و راحت بطلاء الحناء المزركشة فوق جدران كفيها ترسم بجوارحي طقوس حبها الطائش....كل العشاق يحضون ما بين اللقاء و الفراق، بذكريات تتقلص فيها أحداث ما دار بينهم على مدار أشهر أو سنوات، إلا أنا قد كنت العاشق الدرويشي السيئ الحظ من زهد عن الدنيا قبل أن تشغله لينشغل بها فقيرا حد الطوى، إلى كرمها و إحسانها الممتنع تلك السلطانة المتجبرة المتربعة على عرش كياني كملكة نحل موتك على يدها، محتوم فإما أن تبلغها كي تموت على فراش الرضا وإما أن تظلها لتكون شهيد الهوى و ما للحب جنة إلا و سابقها شقاء ليصل بي المطاف بيومها حد الندم على ذلك الاستهتار و انعدام تركيزي في دروس علم الأحياء.. أنا الذي ما سألت أستاذتي يوما ماذا كان سيحصل لو أن أحدا قد لسع من امرأة مثلها ثم عاش و لم يمت متفردا باستنتاجي لاحقا في كونه سيغدو جريحا مصلوبا فوق صراط الانتظار، حتى يصنع الشوق منه ضحية الانتحار على مضجع العجز حيث لا رضا في الحب إلا للمخبولين، فما كان للعشق أن يكون يوما ساعة إشباع بل نزعة امتلاك إلى ما لا نستطيع عليه

صبرا، و إلى ما لا سبيل لنا فيه من غير الغرق اشتهاء فهل سمعت يوما عن غريق غير غريق الحب يصرخ مناديا هل من مزيد و هل عرفت بحرا أكرم و أبخل من غير الحبيب....ثم هل سمعت عمن هو مثلي تملكته المأساة في أولى مراحل تعلمه للغة الحنين، أنا الذي وجد شهرزاده تحضر نفسها لمرحلة ما قبل الأمومة و الجنين، يوم دخلت عليها عروسا يفصلني عنها عقد من السنين و عقد من الذهب و الحلي و عقد آخر بدار البلدية قد اتخذ به قرانها منه صفة الرسمية بعدما قادني إليها الفضول غير مكثر لأمرها و لا آبه قبل تقبيلها لثغري، الذي ما عرف قبلها مقبلا غير والدتي و من دون سابق إنذار منها أو تبرير لفعلتها قلبت علي الحال مسقطة لام النفي مسلطة علي عبئ المبالاة، و ما كنت أعرف أن الثغر ثغرة القلب إذا فتحت نوافذه غريبة اجتاحته الأهواء، و سكنه الهوى من جميع النواحي و الأرجاء، ليقطن فيه حبا أول لم يسبقه إلى مملكتي البريئة أحد، حتى خلتني مدينة مسالمة لم تعرف نفسها إلا و المقتحمة تقرأ عليها تكبيرات الفتوحات بقبلة، ليمسي جسدي سجادها و القلب قبلتها حين همست لي بعدها ألا أخبر أحدا بأمرها كي أغدو في مدن الضياع سندبادها رافضا حب غيرها، تلك المغادرة إلى بيت زوجها من لم تنسيني هذه السنوات الطوال رائحتها...و اليوم بالمصادفة لمحتها خلتها وحدها فاقتحمت مرة أخرى صمتها و خلوتها، عند ذلك الزقاق الضيق بيمين الشارع القريب من بيتها محتمية من الأمطار، لاقيتها بعد أن أتعبني البحث عن عنوانها لأتفرد بها

غريبا عن حاضرها فاتحا الحديث معها مستدرجا إياها إلى ذلك الماضي البعيد، حتى ابتسمت بخبثها الجميل حين تذكرت تهورها فأستغل الوضع بدوري لأقول لها :

أولم يكن من الأولى بهم تسميتك نفرتيتي-

لترد علي بعد تفاخرها باسمها قائلة :

و هل تراني متجبرة كنساء الفراعنة -

فأجيبها لمنطقي مفسرا و للتاريخ شارحا

بل لأن معنى اسمها الجميلة أتت، و أنت لا تقلين عنها بجمالك فتنة ثم أنها في عهدها رفقة زوجها آلهة مصر قد وحدت ثم تمردها على كهنة المعابد أعلنت، و لأمون و عشيرته قد ألغت متخذة من أتون قرص الشمس إلها واحدا، أما أنت فزيادة عن كونك شهرزادي المسلوبة مني بشهر أيار من طرف شهريار أحسده على هذا الاختيار، فانك قد حرمت بتعويذتك على قلبي أي امرأة غيرك من النساء كأنك ألغيت كل من تسكن بمدينتي من حسان حتى أعلنتي نفسك في الحب معبودتي يا شهرزاد

ثم و قبل أن يفض الغرور نظرته عني قد فعلت بها ما فعلته بي فاذا بطفل يراني لتهمس له بما همست به من قبل لي

لا تخبر أحدا -

فراح ناسجا من وحي ما رأى على طريقته القصة ساردا

من أنت ؟ يسألها و لعاب الشعر يسيل من كلماته سيلا

فتجيبه بخجل الجسم العاري ملبسه من الحياء عريا

أنا النفس الأخير من سيمفونية ريمسكي كورساكوف

أنا المخلدة بجدار الذاكرة المتناثرة ألوانها داخل لوحات الفن و قوالب الشعر

أنا التي تغفو الأنجم و الأقمار سهوا في مضجعها ألف ليلة و ليلة

ليعض شفتيه تحيرا وهو لوحي الحرف متوسلا

ثم يعزف بولاعة إصبعيه نوطة

لها من تردد صول خفة و نغمة

فيجيبها مجاريا للمجاز مناجيا

بل أنت صحوة الليل إن غفا على وسائده العشاق

أنت النفس المرئي في زفير المشتاق

أنت اللغة المسروقة كلماتها بشرف الشعراء

أنت الغروب العاطفي عند بحر الرجاء

أنت المنفى الروائي لمبشر القراء

أنت اللؤلؤة الضائعة في غرور الأنثى البكماء

قالت كف عن نسيج البلاغة يا هاوي النساء

ما أنا بليلى و لا أنت قيس يا مدعي الجنون

أنا بائعة الأهواء و أنت مشتري الفنون

فان لم تعرفني يا داهية الزمان

فأنا هي شهرزاد

معجزة الألم...

...بإمكانك دعوته كما شئت، فما عليك سوى أن تدعي اليقين لأهله، بأن لا تفتشي كثيرا في جيوب الورق فقد تدميك ذاكرة ما بحكم الفضول...فسألتني :

و كم كان عمره ؟

قلت :-

ما بين التأليف و ما ألف عليه نفسه فسحة أزمتين، بتربعهما عمر من الصمت المتقع المشتهي للبوح و الغناء كمثل جميع من كان يراقبهم، و هم يمارسون مصطلحات الطفولة من خارج الزجاج و لعثمة الغزل أمام المراهقات و ثرثرة الحديث عن الشقراوات، بعد بلوغهم سن الرشد المباغت إياه قبل أوانه حين كان يبلغ من العمر عشر سنوات...

لم تفهم القصة بطبيعة المنطق، فأكملت عليها سردها ممسكا كتابا خالي الأسطر أوهمها بجمالية الخلق عند كاتب لم أذكره لها ربما يوما ما ستعرف أنهم يطلقون عليه اسم القدر...متبنيا صوت الراوي مستمتعا بمتعة الغياب حضورا...و هي في كامل لهفتها تكمل بخيالها نص الحكاية توقعا ريثما أسرد عليها الرؤيا مصححا قائلا:

كان يعيش على رصيف مدينة شفافة البيوت كثيرة العيوب، و قد انتقل إليها حسب زمنه حديثا ربما قبل سنتين فقط من توقيت تعرفه إليها كما انتقل إليه البكم منذ عشر سنوات إضافية بعد وفاة أهله بحادث رهيب حيث كان النائم بالسيارة و المستيقظ بغرفة العناية و المعني أمام المعاناة النفسية المنعكسة نتائجها على مراياه الحياتية، ليكتشف مع الزمن غرابة الشبه الكبير بينه و بين تلك القارورة الزجاجية الملقاة بجوف بحر ملآ بالأشجان، تحوي بداخلها رسالة ورقية خرساء تتآكل بداخلها كل معاني العجز الكئيب مبعوثة من يد معلوم إلى مصادف لوجودها عابر مار عن المرسل غريب وجهتها المجهول فكذلك كان هو جسد كزجاجة شفافة منغلقة على روح تلتهمها الهشاشة، قد رمى بها القدر ببحر الحياة دون أن تعلم عند أي يابسة تنام فيها الشمس أو تستيقظ ستسقط، فهو منذ ذلك اليوم المروع الذي التهم أهله على مرأى منه و الذي كان الشاهد عليه باعتباره الناجي الوحيد، قد قرر ألا يتكلم أبدا رضوخا منه إلى سبات قدري قد جرده من نفسه عندما لم تعد ذاته ما كانته بالذات ممتهنا للسكينة المطلقة ينظر إلى العالم نظرة مختلفة يجرب حياة من ولدوا دون صرخة من تعلموا ارتداء القرحة قبل الطرحة من أدركوا مفهوم الكبت دون أن يفقهوا معنى البوح...من شواطئ أجفانه المواعدة للدموع مع كل عصر غروب يراقب من الإنس حشودا، واضحة النبر في قولها بينما هو كهيكل طيني تتحدث الأهواء في جوفه و تسكت عند بلوغها لمخارجه الصوتية كلما رأى تلك الشابة و هي تمشي

على أراضيه أمنية من تمنى قرب البدر فبلغه حتى غلب عليه العجز لهفة فلم يلمسه تلك المجتازة بنورها ضوابط عزلة قلبه الانطوائي ليسمعه كيف يحدثه عنها متغزلا بها شعرا و شاعرية، متفجرة عن مشاعر قد تبرأت أحباله الصوتية من إفشائها...لم يكن جمالها استثنائيا و لكنها بأخلاقها عن البشر بعينيه إلى رتبة الملائكة قد ارتقت..يذكر أنها مذ عرفت أنه أبكم لا يتكلم أضحت تمر بجواره فتلقي التحية كما تلقي بسخرية أصدقائها بعيدا عن أسماعها كما كانت تتخذه عند الحزن بئرا لا يشرب منه إلا مالئوه وقت الشدة، و لو أنها لم تكن تفصح له بأكثر من كلمات عشوائية لا أسماء معلنة لتفسيرها حتى أضحت له عطرا صباحيا، و عذابا ليليا و حلما أمديا طال مداه لمدة سنين من الحيرة و الترقب و الأنين الصامت، كان قد بلغ خلالها سن الرابعة و العشرين عندما غادرت المدينة لمدة أشهر طويلة و بصفته أبكم لا يتكلم لم يجد أحدا ليسأله عنها سوى عقله، و لا مدينة أوسع من قلبه ليحدث فيها ضجيجا صاخبا متخبطا كان بين غضب ينهشه و حيرة تتملكه و مستحيل يقطع أنسجة أوهامه يمارس طقوسه اليومية على طريق الآلام نفس الطريق الذي كان يسميه بحضرتها طريق الآمال...إلى أن ختمت مأساته الفاجعة و هو إلى بيت جده ليلا راجعا راجلا حيث اصطفت على عتبة دارها سيارات خارجات من الحمام لتوهن تتوحدن ثم تتباعدن حسب إيقاع الفخامة معلقا على ذلك ساخرا قائلا :

أولم تغذوا الآلات تمارسن حق الطبقية -

ثم يعود إلى نفسه واصفا صوت زفتها ذوي نحل، راح يلسع أذنيه فضولا حينما وجد في حيها رجالا يفرقعون ورودا سمائية تزيد على النجوم نجما، ثم من بؤس تقليدها تنطفئ فلا تزيد الأوزون سوى خدشا و لا تزيد قلبه سوى ارتعاشا...إلى أن رآها تخرج صحبة والدها من باب بيتها عروسا تلبس الأبيض كي تزف إلى من كان أقدر منه إبلاغا و أدنى منه بلاغة...لتضيق به الدنيا و ترتسم قيامته أمامه فيحقق لحظتها الألم معجزته حين راح يصرخ بكل ما أوتي من صوت كان قد روضه على الصمت مناديا باسمها معلنا لها أمام العلن حبه....

لهشاشة قلبها تلك الحسناء الحساسة الجالسة إلى جواري قد بكت ثم سألتني إن كان استعادها كما استعاد صوته ليلتها كأنها لا تعرف أن الدنيا إذا أعطت شيئا فإنها و بالمقابل قد أخذت...نظرت إليها فسكت و سرحت ثم قلت :

و تبقى النهاية مفتوحة...-

سيد الحضور بذاكرتي...

سيد الحضور بذاكرتي...أتراه خانني...و من تراها تكون هذه الجريئة حد اقتحام حياته العاطفية...أتراها أنثى من ماضيه عن مستقبلي معه ستراودني أم أنها مجرد رسالة من توديع العزوبية قد كان يخفيها بجيوبه السرية، هذا ما أوحى لي به عنوان الخطاب فما أن أوشكت على فتحه حتى داهمني ليسلبني إياه بقوة إثبات التهمة عليه فقلت له :

إما أن تقرأه على أسماعي و إما أن تعلن طلاقي -

ليناولني الورقة بيده مجيبا بما يزيد من حيرتي قائلا :

فلتلبسي مشاعرها و لتكوني راويها فمن خطتها امرأة مثلك و بهذا لك أن تتصوري ما يختلج روحها و ما يشقيها -

برجفة الضياع و ازدواجية ما أصابني و أصابها من مشاعر رحت أقراها فكانت هذه أحرف جوفها...

يا سيد الغياب، ما أروع حضورك وسط زحمة المكان، ما أجمل اقتحامك لصيرورة الزمان ما أكثر زياراتك، و ما أعظم عقدتي في تلك اللحظات التي يسكنني فيها الاستحضار، ملغيا ذلك

الفصل البارد من الانتظار الخالق بداخلي فوهة يرقد بجوفها الإعصار المؤدي بي إلى الاحتضار حتى أحسبنا جلوسا نتشارك كوب الشاي و إلقاء الحطب بالموقد بغية إشعال النار ثم السمر حد الاستلقاء، فالنوم بغرف متجاورات حيث تكبر بي الأوهام إلى درجة القهر المتلبس لقلبي في الصباح كلما طردتك الشمس بنورها كما تفعل بالأشباح تاركة لي الوجع جرحا بارزا من غير وشاح لحنا طربا، كم تصلح تعابيره لأن تكون جزء من موشح تبكي أندلسه غياب الأحباب...فيا مترفعا عن العتاب أتراك لم تزل هناك تذكر حالنا و كيف كنا أم أن الزمن قد أنقصني من ذاكرة عمرك كما فعل بي فعله الآن في الخطاب...لا داعي للاكتراث فكل شيء حدث عكس ما خلته سيحدث...يا لسذاجتي إني فعلا امرأة حمقاء، فكيف لم أنتبه من قبل أن الفعل خال إذا أجهضت تاؤه المتحركة نحو الاعتقاد اعتنق الخيال ببضع حروف متشابهات نطقا فسخفا بحضرة الواقع المعلن نفسه علينا سيد ما آل إليه المآل...أتدري ماذا دعنا من كل هذا الآن و لكن هل مازلت تعلم أن صورتك تلك التي...أجل تلك بالذات لم تزل محفوظة لدي بذلك الدرج السري الذي لا يعرف عنه غيرك سواي من المؤكد أنك ستضحك إذا ما قرأت هذا فيخطفك الماضي دون استئذان لتجد نفسك هناك معي أين كنا أين لم نكن بعد ذلك أين لن نستطيع أن نكون بعد الآن و في ساعتها ستتذكر أيامنا تفاصيلنا ذلك الجزء المخزن بداخلنا و إن كانت احتمالية الأمر تتقلص يوما بعد يوم لا عاما بعد عام فأبجديتك صارت

أدنى من مستوى طفل يخلط بين الباء و التاء و لكن مع هذا و بالرغم من حتمية الإخفاق أعلم أن شيئا ما بداخلك سيفهمني دون حاجة منه إلى قراءة العبارات أو الربط بين أحرف المصطلحات و ذاكرتها...إحساس ما بداخلك سيتمرد على منطق اللغة و ما خطه الإنسان ليسألك عما حدث لعائلتنا التي لم يتبقى منها أحد سوانا فيا تراك تملك إجابة على هذا السؤال على أية حال سأخبرك بما حدث يا سيد الحضور بذاكرتي و لتنسى ذلك بعد دقائق معدودات كي تعود إلى عالمك أين لا أرقام تحدد السنوات عالمك الذي لا أقاسمك شيئا منه عدا غربة تفاصيلها ترقد بين جدران غرفتك الفاصلة بيني و بينها شارعان و ذاكرة تنهشها بشراهة بشاعة النسيان..إذ أن الأمر قد بدأ منذ أن بدأت الخلط ما بين النية و القصد في الأفعال حين شرعت تعبر الشوارع ثم تسأل المارة أين أنا الآن ؟-

و عندما صرت تقول لي :

آسف على الإزعاج و لكن من تكونين ؟ و ماذا أفعل هنا صحبتك أنت بالذات ؟-

و خاصة يوم طلبت منك أن تحدد لي موعدا بنفسك لأجعله مباركا بك فسألتني إن كنت العروس ظننتك تمزح نظرا لتذمرك المستمر من سخافة تلك العادات و الطقوس و لكنك حتما لم تتعمد فعل ذلك حالما أنكرت أني ابنتك بحضرة أهل العريس و كل من حظر خطبتي يوم لم تكن لي لا أم و لا إخوة ليسكنوا دمعتي و

فجيعتي...في تلك الأمسية التعيسة مثلي أنا التي أنزلني ما حل بك من مدللتك إلى مذلولة بحضرة مرضك...أسرعت بك إلى المستشفيات فأجرو لك مختلف التحليلات ثم عند الإشعاعات أدركت أنه لا دخل لك بما قذفتك به من اتهامات وأنك بريء من تلك الإدلالات فقد أصبت بإحدى الحالات التي لا تخيرنا الذاكرة فيها بما نريد أن نذكره و ما نشتهي نسيانه...بحسب تقرير الأطباء أصابك الزهايمر فحولك إلى رفات قد حبس بين الأحياء و حولني في ليلة زفافي إلى زهرة تنبث داخل الرماد أحرقها غيابك فعصفت بها رياح خريفك بعيدا عن عالمك لكني بالرغم من هذا أعدك بأني سأعتني بك في كل الأحوال و إن أنت أنكرتني عرفتك بنفسي و جعلتك تتبنى اسمي في قولك ثم قبل ذكره ذكرتك أني ابنتك و لو شككت فلا بأس بالأمر لدي لا بأس مادمت تردد ذلك على لسانك...فأنا أيضا ذات سابق عهد حملت بين يديك و ما كنت أعرف لا من أنا و لا كيف أنطق اسمك و لا حتى عن صلة القرابة التي تربطني بك فيحين أنك قد اعتنيت بي حتى كبرت أنا و ابيض شعرك أنت وها قد آن الأوان لتفخر بي و لو بغياب وعي فالوفاء يا أبي كما علمتني يملك بيوتا أخرى غير قلوب العشاق ثم لا أدري حقا كم من يد سيمر عليها هذا الخطاب قبل أن يصلك و كم أنهم سيضحكون لأني أكتب لك بحكم جهلهم أني أحاول بهذا تعويضك عن جريدتك التي لا يمر يومك دونما اطلاعك عليها و على مستجدات الحياة و أني أغار عليك من العالم إذا أنت قرأت عنه شيئا أثيرت اتجاهه عاطفتك

بينما قد أغفلت عنك ذاكرتك كم أني أحبك...ثم تفاديا لذلك ها قد استلمت مهمة إخبارك واني قبل وصول خطابي اليومي إليك سأزورك كي أنعش حاضرك بماضيك فتعرف أني ابنتك...أني ذاكرتك ساعة نسيانك...

هذا أخر ما أرسلته إلى والدها و بحكم إشرافي على حالته قد كنت أول من استلم خطابها همس لي و هو يمسح بأنامله الدافئة أدمعي أريد ابنة تشبهها...

أمنية لعينة...

و أنا في مرحلة الطفولة الوسطى، أخطو باتجاه العالم الخارجي أولى الخطى مترددا ما بين احتضان الكون بالانسجام مع مدرستي و مدرستي، رُبى أو الانزواء بالاحتضار داخل قوقعة بيتي المهدد فيه من فقداني لمكانتي المنتهكة الحرمة من طرف مولود جديد، قد كان يقترب موعد غزوه لمملكتي مع مرور كل غذ ماض فاتحا شهوة غيرتي منه رغم كل تلك المحاولات الصريحة من طرف والدي و والدتي اللذان قد بدلا جهدا كبيرا في إظهارهما لمدى تميزي و ميزتي كوني الابن البكر لتلك العائلة الناشئة المنتشية بي فرحا بصفتي أولى ثمار الشجرة العائلية إلا أنه لا شيء كان ليقصي من ذهني تلك الفكرة الرجعية ثم امتثالا لمرجعية الغيرة ما عدت بوقتها أدري إن كان من واجبي أن أشتكي أو أرتضي واقع ما سيحدث لي بعد أخذه الحتمي لمكانتي حينما سيغدو مدللها فتنساني بالرغم من كونها

دائما ما كانت تحاول أن تعلمني كيف لا أكون أناني هي التي كلفتني بانتقاء اسم له مستغنية عما قررته مع والدي مسبقا عندما كانا لم يزالا عاشقين حالمين لأقرر تسميته وسيم فلم تعارض قراري بل أخذت بيدي، واضعة إياها فوق بطنها الراقدة بجوفه الآمن روحه الملائكية ذات الملامح التأويلية للأوصاف الجسمانية المجهولة المخفية بين الغيبيات و قالت :

هذا أخوك يا سامي-

ثم ضحكت لتبين لي بأنه لن يشغلها يوما شخص آخر، عن متابعة اهتماماتي مشيرة إلى دافع انتقائي للاسم و هي تغني لي بصوتها المشحون بعاطفة الأمومة لا تنسى أخاك ترعاه يداك...مع العلم أن اسمي الحقيقي فادي و قد صادف ذلك اليوم نفسه أن كان عيد ميلادي المنطفئة فيه شمعة أمنيتي اللعينة المؤجلة أشهرا إلى حين يوم ولادة والدتي...والدتي التي استفقت على أنين مخاضها ليلا ليجعلني أبي أنهي ساعات نومي ببيت جدتي أسير نفسي بين الأفكار متخبطا معتقدا أن الولادة أمر سهل مستخلصا بعقلي الطفولي بأن العملية حول انتفاخ البطن و تقلصه متمحورة جاعلا من نرجسية الطفولة السابقة لأوانها قضيتي كوني كنت مدللا بينما كان والدي صحبتها بين المستشفيات بسيارته متنقلا إذ لو رآه غريب خارجها على بوابات المستشفيات للأطباء متوسلا لخاله متسولا حتى اشتد الأمر عليها تعسرا و هي لرب العزة تكرر دعواتها تسلسلا...

وفية سيارتنا كانت و ما تركت لهما مكانا فيه خبرات إلا و قد بلغت لكن الجميع قد قالوا لأبي بأن غرف التوليد قد أغلقت لتزايد النساء و ما أنجبن و كأن أرض مدينتنا الكبيرة غيرها ما ابتلعت رغم أن الملاهي فيها قد تزايدت فمسكينة أمي أكثر من طاقتها تحملت حتى المنية الروح منها سلبت هي و ما ببطنها قد حملت ليبدو للعالم أنها قد انتحرت فماتت بين يدي رجل غيرها أيمانه ما ملكت و ليفقد بعدها هو صوابه إلا قليله ما ظل بفضل عقاقير طبية موصوفة له من أياد كم صار يراها قاتلة لضمائرها ملتهمة مستثنيا فئة معينة لا محبة و لكن خشية من أن يحمل على صحيفته من سوء الظن المطلق إثما...ليحدث ذلك في القنوات الفضائية جدلا و على وجه جدتي المتجعد دمعا إلى يومنا لم يعرف مجففا بينما كنت أنا عائدا من مدرستي إليها فرحا كون أبي عن بيتنا قد كان غائبا مستعدا لاستقبال وسيم عن أمنية عيد ميلادي السابق في موته متنازلا بعدما حدثت عنه معلمتي ربى الجاعلة قلبي اتجاهه أكثر شغفا هي التي أحسنت تبليغ الرسالة لي كونها عن بيتنا غريبة كي أجد بدل الفرح قرحا عندما جاء أبي إلي من المقبرة بعد دفنها مباشرة حيث أجلسني على المقعد الأمامي للسيارة أين كانت تجلس دائما ليخبرني منفعلا إياي معانقا قائلا بخشونة الرجولة في صوته المنتحبة بكاء أن أمي صحبة وسيم إلى الجنة قد ذهبت كي يمسي هول صدمتي للفايسبوك و أشقائه أكثر الأحداث للإعجابات حصدا...

رقصة على شرف مرآة...

أنامل عازف شبق تلامس أجساد النساء بلهفة ساسكفون ملآ جبه بالشهقات قد كشف عنها الاحمرار على وجه صاحبه من وطأة النفس المكتوم، وهو يقبل ثغورهن عبر تشوهات الرصاص العشقي المرصع على جسد تلك الآلة الماجنة الثغرات، يجاوره آخر ما أن تراه وهو يضاجع النوطات على البيانو حتى تقول عنه عكس صاحبه محتشم باللحن مكتفي لغير سواد و بياض اللوح الرنان الناطق بين أحضانه، فان عيناه لا تنحني بانغماسه مع الحالة ستخاله حتما شاعرا مهزوما يبعثر قصائده لأن امرأة من حياتها قد أقصته و هذا ما ندعوه هنا عبقرية موزار الممزوجة بمزاجية نزار أما عن المجتمع الغنائي العربي و إن تقلص، فان ثالوثه لا يكتمل إلا بحضرة امرأة مثلها تمسح بثوبها البراق سطح

المسرح من الغبار برشاقة خصرها تلفت الأنظار و بصوتها المعطاء تشتري الأضواء، فهي تملك فوق كل ذلك موهبة الإغواء...الطاولات طويلات للعائلات مستديرات للجلسات و متقاربات في خدمة العشاق، سواء أكان موعدهم على الغذاء أو العشاء، فكل شيء هنا يحرض على الحب و الحياة...نادل آخر هو بعمر الشباب يشتهي تذوق ما يقدمه للزبائن من وجبات جيب سرواله ليس مثقوبا كما لم يكن يوما في حق نفسه مقصرا و لا بخيلا إلا أن الأوضاع بالبلد قد فرضت عليه ديونا أكبر من ربيعه المكسو شيبا و هو لم يزل شابا كان من المفترض به أن يكون أكثر جموحا لولا أن البطالة لمدة سنوات قد قطعت له جناحا معوضة إياه بجنحة جعلته يفهم قانون الجاذبية الكونية و السلطة النيرونية كما قد أعادت إليه مفاهيمه الأولى في طريقة السير على الأرض بدل التحليق لأن سماءنا مليئة بالجوارح و لاشك في أنه قد نال ما يكفي من قدره الجارح...و عند الزاوية قرب تلك اللوحة المزورة المنسوخة بالاستيلاء على حرمة إحدى إبداعات دافنشي كنت لتجدها دائما هناك لو أنك زرتنا مسبقا بمثل هذه الأثناء و ما إن كنت لتراها حتى تدرك أنها استثناء فلا هي بالمثل مثل العذراء أو فاطمة الزهراء و لا هي بالفسق من صنف المومسات أو بائعات الأهواء هي فقط شيء لم يبلغه حبر الشعراء و لا تفكير العظماء ممن درسوا فتخصصوا حتى اشتغلوا في تصنيف النساء إذ لا ثوبها و لا تصرفها متجانسان و لا أنا بقارئ حذق يحترف لغة الأجساد المحصنة بأقفال محكمات

الصمت و التنهيدة فالابتسامة و التأتأة حال التأخر عن كلمات الأغاني المنشودات أو التعثر بين المفردات المتشابهات..عمرها كجسدها صغير طولها مثل شعرها قصير سرعان ما كنت لتكتشف ذلك فهي لا تلبس الكعب العالي إلا لتخلعه عند جلوسها فوق ذلك الكرسي الأرجواني...شخص ما نادي باسمي فظننته يقصدني لم أعرف أن القدر قد كان يتقصدني و عنها يغفلني إذ إني لم أراها إلا و هي تقوم من مكانها مسرعة تاركة من كحلها فوق الطاولة البيضاء بقعة سوداء لا ينتبه لها سوى متحري نسائي فطن مثلي و دون أن تترك لي أثرا لتدلني على سبيلها تبعتها إلى الحمام مدركا أنه بمثل ذلك الوضع سيغدو ضالتها فهي لن تخرج بذلك عما فطرت عليه النساء ثم كلص يحترف الاختباء حاولت اختلاس ما تخفيه خلف صمتها المرهون بالحضور فإذا بي أراها كيف تتحرر منه أمام المرآة و هي تعري رأسها المكسو بشعر مستعار لكأنها كانت تقول لنفسها هذا ما يجعلني أبدو على هذه الحالة من الأسى و الاستياء ثم أنها قد ظلت هكذا إلى أن أشفقت عليها ذاتها المتجسدة أمامها كلوحة صادقة معلقة بمعرض كئيب لا مشتري يسمح له بدخوله ولا ناظر يقدر الفن من غير صاحبته الرسامة و المرسومة بالمرآة...لم أطق شعورها فتركتها لتعيد تركيب قناعها بتلك المستحضرات النسائية التعيسة تلك نفسها التي باتت مشتركة ما بين الجنسين فالبعض من الرجال من لا يشبهوننا صاروا يبتاعونها...انصرفت قبل عودتها بدقائق معدودات كن كافيات لتجد فورعودتها على طاولتها وردة فتية و

شمعة لم يسبق أن قبلت ثغرها البريء النيران ..حيث لم يكن أحد بالمكان غيرنا نحن الاثنان و أولائك العمال المدفوعي الأجار فقد سخرتهم لخدمتنا و قبل ذلك ليشهدوا على براءة أفعالنا...لم تحاول أن تفسر ما يحدث حولها و بسرعة استلمت دورها إذ إنها قد أخذت الوردة المخطوفة من الباحة الخلفية للمكان لأجلها ثم راحت تتعرف على عطرها و قبل أن تحرق بالشمعدان إصبعيها وضع النادل كأسا بيدها لم يكن نبيذا بل عصيرا فقد كنت أبتغي صحوتها لا سكرها حتى أنها ابتسمت حين قال أنه مني و قد بدا الأمر بديهيا بالنسبة لها إذ كنت الوحيد المتبقي هناك كزبون غيرها و أنا أجلس مقابلا لها رافعا من البعيد كأس الاحتفاء بوجودها...فما أن ارتشفت ما يكفي لتترك على حافة الكأس أثرا لأحمر شفاهها حتى مددت يدي إليها كدعوة للرقص معها...ليلتها أصيبت لغتي بالعجز فلم أقل شيئا لها عدا كلمات على هيئة همسات و وشوشات كانت تعلو معها ابتسامتها، كما لم تفعل هي شيئا غير الاستسلام للأجواء لتمكنها من البكاء على كتفي و هي ترقص معي رقصة الرثاء، تاركة على معطفي شيئا من دمعها العاكس للطقس المعلق دمعه البارحة على الزجاج الطارق رعده للأبواب بعدما تأخرت الساعة فلم يسأل عنها أحد غيرا لأطباء لتقرر المغادرة، قبل أن تجيب عن استفسارها المرآة حين سألتها من كانت الأتعس بمدينتها في تلك الساعة بالذات...منعها الجو من التنازل عن الحذاء فتركت لي بطاقة لإحدى المستشفيات المتكفلة بعلاج مرضى السرطان كعنوان استقرار كي أتمكن من

استعادة مظلتي منها في الغد المحدد بيومنا هذا إن هي تأخرت عن موعدها اليومي للسهر هنا أين اعتادت أن ترفه عن نفسها قبل أن تمزقها...هنا حيث اقتحمت دون سابق نية وحدتها وحزنها و هاهي ذي الآن قد تأخرت على غير عادة مواعيد مراقبتي لها أما أنا فبقدر ما أبتغي الاستفادة من حجة المظلة في تظليلها عن رغبتي الحقيقية برؤيتها إلا أنني مرتعب من أن يلاقيني شتاء آخر يخبؤه لي السر الخفي خلف سبب تأخرها...

لحظة سعادة صادمة...

عادت بعد غيابها المنتقصة من فترته المفروضة، بضعة أيام بعد انتهائها من جمع ما يكفيها من معلومات تخدم مشروعها الجامعي متغافلة عن جمع ما يكفيها من خبرات حول مشروعية الخيانة الزوجية...بلغت المطار حيث لم يكن هنالك أحد في استقبالها غير أن الحزن لم يكن وقتها على استعجال ذلك لأن قلبها قد حدد وجهته مغيرا سبيل المكان بعد أن قررت أن يكون بيتهما المشيد بعقلها من وهم العشاق عنوان وفاء كما في الأحلام، وجهتها أين ابتغت أن تفاجئه و أنوثتها في أهبة الاشتياق و حنينها إلى

رجولته قصيدة منفي يطول أرضه بعد عزلة أعوام هو الذي لم تقرأه أبراج الصباح عما كان ينتظره في المساء هو الذي درس رزنامة غيابها بإمعان، معلنا عودتها بذلك الطقس القاسي أمرا محالا. مباشرا طقوس خيانته لها دون احتيال مع أختها الصغرى التي لم تكن بحاجة إلى برهان، و لا إخضاعه مسبقا لاستجواب لتطلع على ملف عزوبية قلبه أو نسخة من عقد زواجه هي نفسها التي شاركتهما الزفة قبل عام...فتحت الباب لتجد أرضيته مفروشة بالأقحوان فأشعرتها بالأمان قبل انفجار البركان هي التي صدقت تأويلها المبني على الخيال معتقدة بأن زوجها يقرأ ما تبقى من طفولتها من أحلام متقدمة ببطء أميرة ستوافي فارسها رقصا على الألحان كي تجد عند أول انعطاف زاوية تقود إلى غرفة نومهما ثوبا أسود مثل قلبه مقاسها على مقاسه فالتقطته من أرضه حاملة إياه بسعادة و السعادة غالبا ما تعمي بصيرة العشاق إذ جعلتها تكذب ما صدر عن حواسها من وسواس يفوح من عطر جسد أنثى مغاير لها و إن تشابهت الماركات، فيا لحماقة النساء كيف لم تميز رائحة أختها التي تركته لها على حافة الباب كلافتة إنذار تعلق خارج غرف الفنادق طلبا لعدم الإزعاج و هي تفتح الباب في أتم الاستعداد للامتزاج مع إيقاع موسيقى تصدح بصوتها متعدية حرمة الغرفة الموصدة على عزف أصحابها و هم في نشوة منفتحة شهيتها على الشهوات لتنتهي بعدها جمالية الخيال و ليتوج القدر نفسه ملك المفاجآت معلنا الصدمة لعنة على من هم بغير حقهم سعداء...

امرأة في زمن الإناث...

في هذه الليلة فقط قد أيقنت بأن رغبتي الحقيقية ما كانت يوما متجسدة في كوني أمثل كل شيء بحياتك، فالأشياء قد تتغير و قد تزول...أحيانا تستبدل و في الغالب تبهت، لتغدو كقطعة أثرية ثمينة قد رخصت بزمنها، أو بالأحرى بزمن لم يقدرها فيه صاحبها إلى أن يعيد لها الزمن هيبتها يوم يفقد المالك لها سلطته على حاشيته، فلا يجد غيرها كرسيا صامتا في مكانه قابعا مخلصا مستعدا للولاء بعيدا عن شماتة الأعداء و شتائمهم...فصدقني يوم أخبرتك أني أريد أن أكون كل شيء

بحياتك لم أكن أعي ما أقول، و لكن و في هذه الليلة التي لا تختلف كثيرا عن سابقها قد سمعت صوتا ما بداخلي...صوتا خافتا يهابني بحضرتك و كلما استدرجته صوبك خانني يخبرني بأني لا أريد أن أكون كذلك حقا، لا أريد التحول إلى ذاكرة مشوشة تقصها على الغرباء في الشوارع و الطرقات، و لا قصيدة تشبع بها رغبات العاشقات المخدوعات بكلمات، لن تكفي لإنصافي فما كنت يوما أبتغي الظهور بصورة المنتفعة بالغيبيات..و لكن و بالمقابل لكم وددت و بشدة لو أنك تسمح لي بأن أحل محل ذلك الذي يخبرك عما تريده ذلك الذي ينبض ليبتغي و ينتقي من الأشياء ما يشاء، ذلك الذي بمزاجيته يتخلص من كل الملموسات خارجا مكتفيا بعزلته وحيدا لربما، و لكن سعيدا فلكم تمنيت أن أصير هو كي أبقى دائما إلى جانبك في جميع الأحوال و الأوضاع و الأوقات، خارج نطاق الأجساد أو منطق النقاشات و الاستفزازات...ولكم رجوت من الله أن يزيل عن عينيك الغشاء حتى تراني زوجة لك، وفقا للروحانيات كما سبق و أن تعاهدنا قبل سنوات...ظننتني مستعدة لقول كل هذا و لكن ماذا الآن أراك ترقد إلى جانبي كالطفل المسكين الخائف منكمش الجسم مسهود الروح ثم مبتلى بالهذيان تحاكمني دون استدعاء أو قضاء لتجعلني بأفعالك حبيسة السؤال، يا ترى ما ذنبي من كل ما حصل معك لأحضى بمثل هذه المعاملة القاسية منك؟ و كأني أنا التي جعلتك تخسر شركتك و أموالك لتجازيني بخسارتك بعدما حولك الضعف إلى لاعب قمار منهار...خسارة

بعد خسارة هذا كل ما يتردد على لسانك بهذه الأيام و لكنك دائما بقولك كنت و لم تزل تشير إلى الماديات فيا ترى هل مازلت تضعني ضمن قائمة الأشياء...لا أدري أين أنا من كل هذا الآن...منذ شهرين فقط قد حجزوا بيتنا ليشاركوا به بالمزاد و قبل أسبوع قاموا بقطع الكهرباء، أما عن غد فقد أتاح لنا فرصة الاختيار ما بين دفع الإيجار أو البحث عن سمسار، لنقلص من حجم الدار أكثر فأكثر و أنا لم أزل مستعدة للبقاء معك ولو كنا سنعيش داخل جحر أرنب في الغاب فخسارتي ليست مادية و حبي لك لا يعترف قاموسه بمصطلح الاستغناء عنك، خاصة بمثل هذه الأوضاع المزرية حيث لم يعد هنالك مكان يتسع لزيف المجاملات أو الثناء، فيا تراك ستقدر يوما كل هذا العناء أم أنك ستقول عني امرأة مجبرة لا حيلة بيدها و لا حرية اتخاذ القرار، بالرغم من أن الواقع للتخلي عنك قد شرع لي مختلف الأبواب...قررت الليلة أن أباشر البحث عن عمل بالغد لإعالتك على المصروف، أو على الأقل بهذا سيغدو بمقدوري مقاسمتك ثقل الأعباء و هذا الكم الهائل من الإعياء الملقى عليك...لا أدري أي البيوت ستستقبلني دون إذلال، فعزيزة قومي كنت البارحة و غدا قد أصير منظفة حمامات و لكن و مع هذا فإن مشكلتي ليست في ذلك بتاتا مشكلتي الوحيدة ألا أطرد عنك العناء، أو أن يجعلك مظهري مصابا بالغثيان مع أني أعدك بأن أنظف نفسي قبل عودتك إلى البيت، و أن أرتدي ما يسر ناظرك فأنا مستعدة لأن أفعل أي شيء قد يعيد إليك ابتسامتك يا وسيم الصفات كما سأستر

دائما عرضك فهذا القلب يحبك، و هذا العقل ينصفك بالرغم من أفعالك و سيئاتك فنحن يا حبيبي لم نتزوج لنلعب الأدوار...صدقني لا أريد خسارتك فبالله عليك لأجل من أحمله ببطني و من سيغدو غدا ابنك لا تقامر بهذا الحب في الحانات و الأزقة خارج نطاق الشرع و القانون تحت اللاحماية وسط ساحات الممنوعات فأنت لم تكن يوما شيئا بحياتي بل كنت دائما مرادفا للحياة...

استدار نحوها بعدما سحبت أناملها عن فروة رأسه الممتلئ بالأفكار فقد ظنته نائما لا يسمع ما رددت عليه من أقوال ثم أمسك بيدها و راح يقبلها بدافع الامتنان و هو يقول :

أنت نعم الحبيبة و الزوجة، و لا تقارنين بأي شيء بهذه الحياة حتى راح يبكي بحضنها تلك من كان ينوي أن يطلق سراحها من سجن الممتلكات الخاصة به بورقة طلاق فقط لأنه وجد مصلحتها في الابتعاد عنه من غير استشارة أو استفتاء بعدما اجتاحه الضياع بين مجالس الضباع...مدركا في النهاية بأن خسارته لها ستساوي إن هو فعل حجم خسارته للحياة و ليقرر بعد تلك الليلة إعادة الحسابات الخاصة به محاولا الإفلات من قبضة الشيطان و الإغراءات بالرغم من أن انسحابه من القمار المتفشي فيه كحالة إدمان سيكلفه حتما المزيد من المآزق و الأزمات إلا أنه ما عاد يكترث أو يأبه فقد بات واثقا من أنه يملك بين يديه مفاتيح السعادة و الحياة...أنه يملك امرأة في زمن الإناث

عن حسن جهل...

هذه حكايتي.. حكاية أنثى قد سكنها الفراغ بعد أن كرهت دراستها، لكونها ما أجادت يوما الرياضيات لكنها بالمقابل قد أحبت متابعة المسلسلات و حياة النساء الشقراوات خلف الشاشات، و بالأخص ظاهرة التسكع بين صفوف الشباب داخل وخارج قاعات الجامعات، و ليالي السهر بين أساطير

الرومانسيات بعيدا عن سطور الحكايات و الروايات، ظنا منها بأن ذلك هو متاع الحياة، حتى وجدت نفسها بالبيت خريجة أعمال منزلية، ثم مديرة على عاتقها كل المسؤولية الخاصة بالغسيل ومسح الأرضيات مع غيرها من الامتيازات، إذ كلما طالت مدة البقاء صار الراتب زهيد الشقاء إلى أن ملت البقاء تحت مسمى عزباء، بعدما وجدت نفسها في سن مناسب للزواج حتى أصبح ذلك الأمر هاجسا يطاردها كظرف طارئ يحضر بذهنها في كل زمان و مكان، متضاعفا في المناسبات و على وجه الخصوص حفلات زفاف القاصرات من اللواتي يصغرنها سنا و برأيها يكبرنها حظا، من كانت بالكاد تستطيع الرقص بأعراسهن للفت الانتباه إلى أن تعرفت ذات رحلة استجمام كان حدوثها ببيتهم من نوادر الزمان بشاب قد تجسد لها في صورة فارس الأحلام من ناحية الشكل و المال و لكن في استعجال تقدمه لخطبتها كان الإشكال إذ إنها قد كانت ترفض فكرة الخوض في علاقات نهاياتها مفترق طرقات، و مع ذلك لم تكن على قدر كبير من الذكاء لكي تخضعه بسهولة إلى كل تلك الرغبات المشهرة بوجهه بعد نسيانها أن الصياد بحنكته قد يقتل ملوك الغاب و أنها مجرد نبتة خطت طريقها في اعوجاج، عندما راحت تلبي حاجياته من النزوات بعد معرفتها به بأشهر معدودات معتقدة بأنها بذلك قد ضمنت مالا تضمنه الزوجات من الأزواج و ليكمل هو فصول التهامه لتلك الشاة المشوية على نيران الأحلام البيتية لفتاة قد رضعت من نهد الأمية حد الشبع و الارتواء، قد قام بالتقدم إلى

بيت أهلها قاصدا إياهم بعلبة تحوي كعكة و حلويات ما كانت لتكلفه أكثر من دنانير معدودات و بيده الأخرى باقة حمراء تشتكي رائحتها من سوء التقليد و ما قامت به الفتاة من خرق للتقاليد والعادات بحكم تطبيقها ما للحداثة من عاهات في الخفاء، و بالطبع قد حدث في النهاية أن وافق الطرفان بناء على خطته المحبوكة بإحكام المشاركة فيها، هي التي لم تحسب لعاقبتها حسبان ليعلن بعدها ذلك الجسد الأنثوي مملكته الممتلكة مقابل خطاب قد حفظه من برنامج تلفزيوني سابق كان ألقاه بحضرة والدها كي يرحل حال مللله منها، بعد أن بات يحفظ تضاريس جسدها كما لو أنها خارطة مطوية بجيبه وقتما شاء، غامر في أراضيها تاركا برحمها ما ستتوسل به من المجتمع رحمة بعدما خذلها ذلك الذي سبق و أن سلمته نفسها دون تسأل عنه أحدا من معارفها إلا بعد اختفائه عنها دون أن يخلف وراءه أثرا يدلها عليه...ليجيبها عن سؤالها صاحب البيت المستأجر حيث ما شاء بها قد فعل أنه قد كان مجرد مستأجر حتى أن اسمه في العقود عكس ما سبق لها أن ذكر، و لعله يكون هو الآخر مزورا لتجني في النهاية ثمار أفعالها أو ثمار الحب حسب لغة المسلسلات المعروضة بالشاشات الفضائية العربية المولعة بها بحكم سذاجتها و غياب الحنكة لديها وهي تتمثل لها على هيئة جنين قد شرع يتجسد بجسدها ليغدو رضيعا بين يديها خلال أشهر معدودات بعدما قد أجاد أحدهم استغلال حسن جهلها...

ما لن يكتب...

أنا و فيروز أنسي كم نعشق الأرض و كم اعتدنا لها أن نغني هي بصوتها الملائكي، و أنا بشاعرية قلمي في غربتي التي اشتهيتها فاخترتها حتى فرضتها على نفسي كضرب جنون ابتغاء مني في

نيل الشهرة و النجومية حتى أصبحت كاتبة أمتع القراء بما مررت به من مآسي، بحثا عن مراسي كما أؤنس العشاق في تلك الليالي الباردة الخالية سماؤها من نجوم البوح و شهب الأماني و لأن روايتي المرتقبة قد نويت أن أضمنها ذاكرة ذلك الماضي البعيد فقد وجدتني أعود إلى بلدتي أين كان بالسابق بيتي و جدتي، و قبلك مساكني أين أثمرت بأشجار الليمون دمعتي أين غفت على أضرحة النوافذ أقحوانتي أين نسجت العناكب بيوتها على رفوف مكتبتي القديمة الخالية من ثرثرة الكتاب و الشعراء، إلا من مؤلف لجبران ذلك الذي أهديتني إياه بزمن المراهقة عندما كنا لم نزل جيران يفصل بيننا بستان و شجرة الرمان، و قفص أمسى يخلو من الحمام منذ أن أطلقنا له العنان في ذلك العصر الفاصل بيننا لحظة بكاء الريحان و فقداني بعدها للحنان، ثم الأمان حين فضلت عليك منفاي معتقدة أن الكتابة مبايعة للأحزان مسلمة لفكرة أنها الانصهار في الفقدان ثم الإخلاص للبعد بعد تقطيع ما لإمكانية اللقاء بعده من حبال الوصال.. وها أنا ذا أراجع في هذه اللحظة أمسي أسير هنا اليوم أسيرة ذلك الوقت المنهار بطموحي المحتار مني، أمشي لوحدي و جواب سؤال سنوات من البعد يدور برأسي يخبرني أنه لو عاد الزمن بي و عاد بإمكاني الاختيار من جديد ما بين هذه الحياة الطبيعية العادية المملة الهادئة المطمئنة و حياة الرفاهية و الشهرة والأقنعة و اللاخصوصية لوددت البقاء معك لأنجب منك الأولاد و أتشاجر معك حول انتقاء الأسماء، و لكن أين أنت و أين أنا من كل هذا

الآن؟ هذا ما لم أخطط له قبل فوات الأوان يوم فضلت طموحاتي الروائية على أفراحي العشقية المشتعلة بي أقراحها وها هي ذي الآن امرأة أخرى تقاطعني تقتحم ذاكرتي غريبة، عن ذلك الماضي لتغدو ضيفة حاضر لم ينقضي بعد و لن ينتهي تماما حال مغادرتي فلكم أبتغي سؤالها عنك لعلها تعرفك مع استحالة احتمالية بقائك للعيش وسط هذه البلدة الريفية الصغيرة و لكن بالرغم من بساطة السؤال لا أجرؤ إذ يبدو لي أني لم أتحرر بشكل نهائي من شخصية الروائية فهي لم تسمح لي بأن أكون عادية و هي تباشر حديثها معي كصحافية قائلة :

-هل أنت الكاتبة و الروائية....

لا داعي لأن أذكر اسمي، فهي و أنت كلاكما تعرفانني كما قالت أن زوجها أيضا يحبني لابد أنها طيبة لتقول هذا بوجهي و أنا لست بسيئة النية لأحرف قصدها من خلال طريقتها في صياغة العبارة فلكم هو جميل أن أجد معجبا بكتاباتي ببلدتي التي سخرت ذات ماض من أحلامي و ما آمن بي فيها غيرك...غيرك أنت يا من جلدتك فراقا بسوط إيمانك المفرط بي ..و ها هي ذي الآن بعد طول استفسار و إقناع جلبتني إلى بيتها كي تفاجئ زوجها الذي أرادتني أن أشاركه العشاء صحبتها هي و ابنيهما مقابل توقيع لم يكن يتوقع أن يحصل عليه يوما حسب رأيها وقولها..مرت ساعة و أنا بصالونها جالسة منتظرة فترة أطول من ذلك الواقف خلف بابها الطارق عليها وهي بالمطبخ مشغولة

ملطخة بالتوابل يديها تطلب مني أن افتح له الباب فلا أرفض طلبها...أمد يدي فإذا به أنت تقول حبيبتي..تنحر سلسلة رؤيتي وفكرتي فلا الذهول و لا الدهشة...لا الحزن و لا الفرح..لا الحياة لا الموت ينصفونني لكي أكتب هذا المشهد في نصي...كي أقرر بهذه اللحظة اللامتوقعة تمزيق كتاباتي لإدراكي التام بأني لم أزل بعيدة كل البعد عن لعب دور القدر في قصتي...فأنا مجرد ورقة بين دفتي كتاب لم يختم بعد يا عذاب أمسي فجلاد يومي ثم عبء ذنب خطيئة العودة بغدي..

و لم تبق سوى ساعة...

أتاني مغازلا قائلا جميلة أنت كغمازتك التي لا ظل لضحكتها

فبمجرد تثاؤبها ينسى المنصف قضيته معلنا ذلك الخد المعاكس اتجاهه للقلب وليمته مغفلا نظرته عن الورد المحمر غيرة على الجانب الآخر من بحيرة الكلمات الحائرة إلى حين مغازلتي له بانتسابه للحزب الأيسر المحكومة ملامحه بفرحة النائم بين الأضلع لحظة الحلم و الساهر ساعة الجرح...ثم راح يسأل بعد أن أقام للرواية مدخل

ما اسمك ؟-

فقلت :

إن ركزت حزرت و إن سرحت خسرت-

ثم واصلت و أنا بسحر عينيه أكاد أفتن

أنا آية المغرمين يبوحون بي في كل و زمان و حين

شعر ذكري قد جاء مفسرا لما قبله من أشجان و أنين

وحدة المعذب رفقة البدر و حبيبته في حضن الكبرياء تتخذ من الشوق سرير

احمرار الورد على الطريق هوس العشاق و وجع من هم على الفراق مقبلين...

قدسية اللهفة في ذروتها يختصرها اسمي و هو يعلو مع الأغاني

متربصا بمن هم بنيرانه مشتعلين بعجز التملك منتشين و لحرية الامتلاك مفتقدين

و قبل و بعد كل هذا أنا الخنساء إذا عن أحزانها سئلت و أنا العذراء إذا بنسبها حدثت ابنة الرجال إلى القبائل ما خضعت فزليخة إن شاءت كادت و إن أحبت أغدقت فأنا ابنة العربية من عن أمها الكرم قد ورثت

: بخبث كلمات تشبه ابتسامته أجابني مراوغا قائلا

و أما أنا فأقول عن نفسي

عائد من أرض النسيان إلى ما أعلنت عليه التمرد عصيانا

آدم قد كفر بجميع النساء فما إن رآك أدرك أنك حواء و أن نظرة الحب في عينيك فاكهة محرمة على أشباه الرجال قد شدته إليك فأنى له المفر يا سيدتي من كل هذا الإغواء

شاعرك يا حسناء أغدو بحضرة أنوثتك نزار أصبح أمام الشدائد بن شداد حتى أمسي عند عتبة قلبك مرددا مجنونك يا أشواق

قيس إن شئت و قيصر وقت الحاجة و قدرك لو أنك على الكف اطلعت

و قبل و بعد كل هذا أنا الذي تمايلت الهاويات حفاة قلب على عزفي و ما أسمعت كلماتي إلا من لقلبي قد همست و أنا

اليوسفي الذي ما لطخت قميصه بقايا أنثى ولا بلسم شفاه أحمر فهلا قبلتي رشوتي لكوب شاي أخضر بذلك المقهى المقابل إن سمحت لي بمناداتك أشواقي و كخدمة للقوافي لك الرد ببحة صوت في الحنان يفوق شذى الكناري بقولك الراقي لك ذلك يا عاشقي الولهان...

تمتمت بكيد أنثى على البوح لا تجرؤ ما ضرني إن أنا رافقته ليقرأني فنجاني حقائق ما يزعم كي أجدني على طاولة الإعجاب بقلبي أقامر و على عينيه المشتهاة أراهن متناسية أني اللاعبة واللعبة و أني المراهنة و الرهينة...إلى أن أتى النادل ليعرض علينا قائمة المشروبات فقال بنبل أشعرني بأني إحدى الدوقات النساء أولا فهن الذواقات ولولا أني قد خجلت من كثرة المجاملات و محلي من الإعراب العربي كوني ضمن قائمة الإناث لأخبرته أني قد أعلنت مسبقا قلبه قيد الطلب لكني رديت على سؤاله كعادتي بخجل كأس عصير يفي بالغرض و قال هو كوب قهوة فأنا أرى بعينيك جريدة و ما كانت الجرائد دون القهوة يوما لتقرأ لأغض عن عينيه بعدها البصر فأعجزه عن اكتشاف ما أكتم و ليتحول الجو بيننا إلى شرك عشقي حين راح يقول لي كشاعر كاذب يصف لك ما لا يراه و تصدقه

عيناك و عقد اللازورد موج أزرق يطوقني

وجهك كرسم الملائكة بلوحات الفن بك يعلقني

حمرتك دون خمر النبيذ تسكرني

كلامك و شهد الحياء بوجنتيك يأسرني

خمار سهرة ينزلق من كتفيك يلعن ثوبتي

و رائحة الغيث على أرضك تعذبني

فأي شرك نسائي هذا ينتظرني

أخذت موقعي من المناظرة الجريئة ثم أجبته مضفية شيئا من الكذب على أوهامه

لرجولة صوتك أوتار جيتار تعزفني

لربطة عنقك ذراعا تعانقني

لسمرة الليل و جسدك عروبة تغازلني

لخطر الفرح المشتهى بحضرتك حزن يتوعدني

لمواعيد الغد الحالمة ساعاته بقربك سأحيك كذبتي

لقلبك التائب العائد إلى ذنبه سأمزق أشرعتي

فأي كذب رجالي هذا يتربص بي

ولتغير أغنية مجرى المحادثة و الجلسة لا أدري إن وضعت بحكم المصادفة أو العادة حتى خلتني المقصودة حين وجدتني بين ذراعيه طفلة يحركها البيانو كالنسمة و أنا أقيس القرب و البعد

تماشيا مع إيقاع أنفاسه و مغازلاته فيشعرني لوهلة أني أنا الراقصة بقصيدته و هو النزاري المراوغ بكلماته في تلك الساعة من الحرية المتعلقة بغربتي عن بيتي و مدينتي كي أرفض في النهاية العودة إلى طاولتي و لا شيء معي إلا كلمات ليست كالكلمات مستعينة بحيلتي المحاكية لسندريلا الحكاية ملقية نظرة على ساعتي لأبلغه في النهاية بحتمية مغادرتي فيستأذنني بدوره برهة لشراء سيجارة أمضي فيها أنا بغفلة عن أمره مناقضة لقانون الجاذبية العشقية المتعارف عليها بين المعجبين و الأحبة متعمدة ألا أترك بيده رقما يقوده إلي وقت الحاجة بل خارطة معقدة الأحجية إذ شئت أن أصنع قدري بيدي لا أن أخضع لمنطق رجل لا يعرفني مخرجة التذكرة الإضافية التي بحوزتي فأنا غالبا ما أشتري تذكرتين للسفر إحداهما للرحلة و الثانية لتؤنس وحدتي تاركة إياها بيد طفل صغير كان قد رآه قبل ذهابه بصحبتي موصية إياه بإعطائها له ثم أمضي دون الالتفات إلى الوراء مخاطبة نفسي مرددة و مترددة إن هو لحق بي فقد فاز باللعبة و استحقني و إن تأخر هو و لم تبقى سوى ساعة على قدوم قطار رحلتي فسأمضي إلى مستقبلي وحيدة حتى من تذكرة إضافية حاملة معي ذاكرة استثنائية ثم أني و في النهاية أنثى متيمة بجراحي فأي تغيير هذا من عدم قدومه يؤرقني...خائفة كنت مما سيقودني إليه مصيري الجنوني المعلق بين كفي قدر طفولي...ثم و قبل دقائق من ذهابي بعد بلوغي لوجهتي عند رصيف المحطة التفت إلى الوراء لأرى ما إن كان ورائي و صوت القطار ملئ الأصداء يعلن عن عودتي إلى مدينتي خاتما بذلك حكايتي....

ولم نحرك ساكنا...

قلت لك تعال معي و انظر تعال و اكسر حاجز قصر النظر تنحى عن الحب قليلا فما عاد سوى كلمة تشعل بي غليلا مللت من قصص الوهم و ما اشتريته لي من كتب كلها خيبات أمل امرأة مازوشية و رجل سادي و العالم حولنا ينحدر باتجاه ليل سرمدي فاعتقدت بأني أتهمك بالخيانة و الخذلان و ما أجاده المتشبهون بالرجال هنا لكني أردتك بعيدا عن بيتنا و نرجسيتنا و أخبار عشيرتنا و مآزق عشاقنا و روايات صراعاتنا النفسية وصرعاتنا و فلسفة وجودنا و أزمات اقتصادنا لنجرب مرة السؤال عن إنسانياتنا و ماذا حدث لها بعدما سمعت أنهم كانوا موجودين بأبسط حقوق الوجود مقتنعين قوت و ماء إن وجدا و مساحة أوكسجين تتسلل حتى إلى قبور الموتى ثم عبادة إله واحد وحده من سينصفهم يوم البعثة العظمى...أولائك الذين سكنوا شرق آسيا ليجربوا عذاب ماشطة ابنة الفرعون و آلام زوجته آسية ما بين شروق و غروب في بورما حيث القتل و الذبح و السلخ الاغتصاب و الحرق و الإبادة الجماعية أعوام و شهور حيث لا حاجة للمرء برزنامة هناك و نحن نقف كالصنم هنا شهود نفتح الجوامع و نستفتي في الخمور و الفجور و الفسوق و ما فسره العلماء قبل قرون فهل شيد الأزهر لنزرع به الزهور أم لنقطف الشوك قبل أن نغدو في ذبول و هل وجد جامع الزيتونة لتصدير

الزيتون أم لأن غصنا منه بثغر حمام أبيض موشك على الانقراض قد بات يشكل بدعة كان لنا راية سلام العالم بها يجوب...لا أستغرب يا حبيبي بوجهك الذهول فأنا لست من تحب مشاركتهم مثل هذه الأمور فقد خلق لك العالم الافتراضي مساحة للقتال بمعظم الفنون جعلك تخال بأنك تغير العالم خلف شاشتك جعلك تؤمن بأنه قرية صغيرة بين يديك صورة و منشور عزاء و انتهت المأساة فهيا لننام و ضميرنا مرتاح فلن يدق بابنا الآن أي سياح أما خارجا و بعيدا عن أحلامك و رغباتك و كلمات حبك ستجد الهمجية في اتساع و المنشار ينحر أقوياء الإيمان من أخلصوا لله و الإسلام و مساحة الأرض بما عليها تقلصت حتى بجوفها امتلأت فالإحصائيات ألغيت لأن المذابح و المجازر والمحاكم و الاضطهاد و التشويه و الإرهاب مساحة للأحياء المسالمين ما تركت...أحنيت رأسك بؤسا ما فعلت بؤسا فما جئت أبتغي نفسيتك أو أسفك فيا حبيبي هذه هي أزمتك عاطفي ذاهب نحو الخراب عقلك ألم تفهم حتى الآن أني أبتغي نهضتك رجولتك عنفوان الغيرة و النخوة فيك أنسيت ماذا قال نبيك أنسيت حق الغير عليك أم أنك قد أضعت إنسانيتك خلف فرضيتك المشبعة بكبسة أزرار الكترونية حقا كدت أيأس منك و من حبك فأنت و من حولك غير أدوار إخوة الصديق و حنكة تعليق التهمة على عاتق الذئب ما أجدتم إلا أمرا آخر بعصركم جديد و هو منشور و ضغط زر أعجبني على صفحات المآسي و الفتنة في هذا العالم الإنساني الشبه الحيواني...

انا انسان

صباحكم...مساؤكم...كيفما كان توقيت الذاكرة بقلبكم...

أرجو أن تولوني بضع دقائق من اهتمامكم..

فأنا إنسانة تشبهكم قد حجز لي العالم يوما بين رزنامة يومياتكم..

فقط لأذكركم بأني مجودة هنا..

أحيا بينكم...

أحيا حياة الظل إن شئتم...

أحيا خلف الجدران كما أردتم...

أحيا في خزي مهين يرمقني به المارة و الناظرين...

لا لشيء فعلته بنفسي بل لمرض لشدة خبثه لعين..

مرحبا جميعا...أعتذر عن هذا التقديم الطويل...

فأنا لا أحظى دائما بأصدقاء للثرثرة و الحديث...

لأني سيدة مصابة بالسيدا...

مهلا إلى أين أيها السادة فأنا لم أبدء بعد إلقاء القصيدة

أرى الذهول بوجوهكم الآن تتساءلون كيف لنا ألا نصاب

هدؤوا من روعكم و لا تخشوا شيئا

فأنا لن أعدي أحدا...تعلمت أخذ الاحتياط

فمرضي لا ينقل بالهواء بل له طرق و أشكال عدة

تبدأ من الممارسة و الشهوة المطلقة

أين لا ضابط و لا أخلاق

لكني حالة استثناء...لا أرجوا منكم الثناء

بل الإصغاء

لقد نقل إلي الفيروس و أنا لم أزل في رحم أمي نطفة

هكذا رجح الأطباء...لولا أن آخرين قالوا بفعل الرضاعة

فأميا قد كانت قبلي مصابة

لكم أن تقولوا عن حالتي وراثة

و لكن لا تنعلوا أمي و لا تنعتوها بالفاسقة

أو بائعة الهوى

فهي ضحية أخرى بالصدفة قد اكتشفت أنها مصابة

توجهون أصابع الاتهام إلى والدي الآن

أعرف أن فكركم لا يتجاوز صور العلاقة

لكن الحقيقة غير هذا

فوالداي أشرف القوم حسبا و نسبا و أخلاقا

أولم يخبروكم أن الأمر ينتقل بالدم و ماكينة الحلاقة

فلماذا تلومون دائما التمثال على ما نحت

و تبرؤون النحات على ما نحت

ضميركم يؤنبكم و ما الحاجة

فات الأوان أيها السادة

فأنا لم أفقد المناعة الجسدية فقط بل فقدت المناعة العاطفية

جراء المجتمع و الرؤيا الرجعية المحصورة

في نطاق الربط بين الأمراض و العلاقة الجنسية

لا تعتذروا لي الآن فلا حاجة لي بكل هذا

و لكن حاذروا أنتم من ممارسة الشدود و الجنس العبثي

و الدماء و كل ما ينقل الفيروس

لأنه سيحطم فيكم المناعة الجسدية و النفسية

و حتى المكانة الاجتماعية لتمسوا خبرا نسيا

عن حالة انتحار مأساوية

في صحيفة صباحية

سيعلق قراؤها بكل برودة و سخرية

ها قد انتهت الصلاحية

لمريض ما كان ليزيد البشرية

ببقائه سوى أمورا مأساوية...

و الآن فلتسمحوا لي أن أودعكم بهذه الأمسية

كي تفكروا بما قلته لكم و تسقطوه على ذواتكم

علكم تعيدون ترتيب حساباتكم قبل محاسبتكم لغيركم

فلربما صلحت معاملتكم

مع من هم مثلي

قد ابتلتهم الأقدار بمرض لا ذنب لهم فيه

صغيرة من دار الآثام...

تمنيت لو أنكما موجودان حتى لو علمت أنكما آثمان حتى لو أن العالم كله سيشير إليكما بأصابع الاتهام و يقول بأنكما فاسقان...حتى لو تحدث عنكما بكل ما قصدت حذفه الآن من الكلام...تمنيت لو أنكما موجودان...فمهما تخيلتكما قاسيان فإنما لن تضاهيا يوما قساوة هذه الحياة...حتى لو كنتما تحملان من البشاعة ما لا يطيقه الإنسان فلن تكونا أبشع من هذه الأيام...تمنيت و تمنيت طيلة عمر و ليال سابقات و لتبقى في النهاية الأمنية ميت يدعو بالعودة إلى الحياة...لهذا فأنا اليوم قد بت أدرك جيدا بأني أناجي الأصنام و أني أطالب القدر بما تبقى بجعبته من أحرف المعجزات...و ليبقى بداخلي حائرا السؤال ذلك الذي لن تشفع لكما فيه الإجابات المبتورات من صفحات العمر الخوالي الخاليات منكما كما ستكون أحوال القادمات فيا تراني أخطر ببال أحدكما الآن كما تدق الذنوب أبواب تلك الأرواح المطهرة خلال ساعات الاضطراب ما بين الرغبة في العودة إلى لذة الخطيئة الأولى ساعة الغرق فيما حرم على النفس من شهوات و ما بين الكفر بإغواء الشيطان و النزوات و هل حدث أن فتحت مخيلتكم ذات ليلة شتاء أبوابها لاستحضاري أم أنكما لم تعودا تكترثان لما قد حل بي منذ تلك الليلة الباردة القاسية فعلتها

الملتصقة بي أحزانها إلى الآن يوم جئت إلى هذه الحياة دون أن أسأل عن غايتي و ما إن كنت أريد البقاء في العدم أم التحول إلى إنسان قد تشكلت روحه من شهوة عابرة أو حالة اغتصاب أو حتى من جسد مباح للرغبات أنا التي وجدتني أنعم بحق التنفس دون أن يكون لأنفاسي أي اعتبار...أنا التي ولدت على رصيف الشارع ربما أو بمستشفى قريب من المكان الذي حدثت فيه واقعة العار أو حتى بالغابة بين الأشجار دون أن يستأذنني شخص في حال إذا ما كنت أبتغي حقا أن أجسد هذا السيناريو الذي لم أفهم إلى غاية اللحظة ما هو دوري الحقيقي فيه أهو دور الدليل القاطع على قضية لم ترى الشرطة لها أهمية أو دور ثمرة حب لم يمتلك أصحابها أرضا عدا الشارع ليغرسوا به بذور أفعالهم فألقوا بها هناك على عتبة الملجأ بعدما نبذتها أجسادهم و قذفت بها خارج رحمة الأرحام...إلى دار الأيتام أين وجدتني العاملة عند الصباح نائمة بعدما أتعبني الصراخ و قد أصابتني برودة الجو بالزكام حين كان عمري لا يتجاوز أشهرا معدودات حسب ما روته لي إحدى المسؤولات عن كتم الأسرار...و هنا يعاودني السؤال مرة أخرى لماذا احتفظتما بي كل تلك المدة لتتركانني على أمل ما جاء في أية موسى حالما ألقته أمه في اليم ثم ألم تتدبرا في السورة ألم تخشيا علي من أن أوضع بين أيدي فرعونية الأفعال و لكن ماذا لو أنكما أقسى من أن تسألا عن مصيري عن الحكم الجائر الذي راودني عن الحلم طيلة فترة البراءة...و كيف لا وقد طاوعتكم قلوبكم يا لتفاهتي أي نوع من

الأسئلة رحت أطرحه عليكما الآن

لنعد صياغة الحوار

مرحبا...هذه أنا يا أنتما عذرا لأني أقول هذا عنكما فأنا لا أعرف اسميكما و لا أوصافكما و لا طباعكما أو أي شيء أخر قد يقربني شبرا منكما...

مرحبا جميعا...هذه أنا التي لا أنتسب إلى أب أو أم ولا حتى قبيلة لكني قد نسبت إلى لوني و شكلي عندما بت أفقه أن جونة يعني في اللغة الفحمة و الشمس عند مغيبها لأنها تسود حين تغيب و بهذا فأنا منسوبة إلى ذلك السواد الذي امتازت به بشرتي و عيني اليمنى على خلاف اليسرى إذ أنها زرقاء كبحر الضياع الذي أعيشه بداخلي و كمثل تلك السماء الصافية لولا أن بسمائي مطر لا يتوقف عن الهطول...أنا جونة أو جوين كما اعتاد الأشخاص مناداتي إذ أنهم يقولون أن لفظ اسمي ثقيل على ألسنتهم كما هو ثقيل وجودي على قلبهم...ذلك الاختلاف ما بين توأمتاي الصغيرتان نادر الوجود لهذا فقد كنت و لم أزل مؤمنة بأن الله لم يميزني بهذا الاختلاف عبثا كما أعتقد بأن بهما إشارة ما إلى اختلاف والداي فلا بد و أن لأحدهما عيونا زرقاء و أن للآخر عيونا بنية قاتمة يكسحها السواد ثم و من هذا المنطق المؤلم دائما أفكر بأني جئت نتيجة فعلة سوداء و لولا ذلك لما طغى على هيكلتي هذا اللون المخيف كالظلام الذي يحيطني من كل جانب...

احتضنتني دار الأيتام بجدرانها التعيسة و أروقتها الضيقة و أنفاسها الباردة و لياليها الخالية من الحكايات عدا ما تحفظه بذاكرتها من سجلات لأحفادها السابقين أولائك الذين غادروها حال بلوغهم سن الرشد ناقمين على الحياة ليكملوا ما تبقى من عمرهم مشردين إذ لا عناوين لهم خارج الماديات...فهناك يتعلم الطفل كيف يتخذ من الجدار أبا له و من السرير أما حنونة تخفي في الصباح أغطيتها آثار بكائه الليلي...هناك أين لا ثقة لنا سوى بالغرباء أولائك الذين يزورونا خلال حفلات الإنسانية و المناسبات الخاصة بالجمعيات الخيرية أولائك الذين نتودد إليهم بغية أن نتعرف أكثر على ما تعنيه كلمة الحنان و إن كانوا هم يحضنوننا من باب الشفقة...هناك أين عشت معظم طفولتي أعاقر الخوف من الغد حالما اكتشفت أن الذين أعيش بينهم ليسوا إخوتي و أنهم ينبذونني للوني و يخشونني بسبب عيني فلكم حاول أحدهم فقعها ليعرف السر الكامن خلفها لولا أني قد كنت أجيد العض فقد كانت أسناني البيضاء المتفرقة حادة و مؤذية أكثر في مرحلة الطفولة لذلك كنت أتخذها كوسيلة في الدفاع عن نفسي و للاحتماء من شرور اليتم قبل أن تتكفل تلك الأسطورة الملفقة حولي بحمايتي إذ حدث ذات يوم أن ناداني ذلك الحارس المخمور الكثير السكر و تعاطي المخدرات حال إعلانه لي طعما فتيا للعشاء مناديا و هو في الساحة يراقب من قد كبر جسمه من الصغار...عندما أخذت أصواتهم تتضاءل قائلا :

جوين تعالي :-

ماذا هناك.. ؟-

لدي شيء يخصك..-

كانت تلك الكلمة أروع ما قد يسمعه الواحد منا هناك فقد كانت تعني وجود هدية تخصك أو قطعة حلوى ابتعها خصيصا لك لذلك قد قمت بإلقاء دميتي على المقعد الحديدي المتسع لثلاث أشخاص و رحت إليه ركضا...فحملني ليجلسني فوق رجله مقبلا خذي بلحيته الخشنة قائلا :

لدي دمية كبيرة قد اشتريتها لك خصيصا لكنها مخبأة بغرفة نومي سأعطيك إياها ليلا إذا قبلتني الآن ثم قرب شفتيه مني و رائحة الخمر تفوح منهما لأهم بعضه بقوة و أهرب ركضا تاركة دميتي وحيدة بالخارج خوفا منه هو الذي تسبب في تأخري عن العودة إلى الداخل محاولا أن يستغل دقائق خلو الساحة من الأطفال و الألعاب غير أن كلمة مما قاله إلى اليوم قد ظلت تلاحقني فقد ظل يردد خلفي

تبا لك أيتها اللقيطة-

لم أكن أعي ما معنى الكلمة كما لم أجرؤ على إخبار معلمتي التي عاقبتني إثر تأخري عن الدرس...فقد ضربتني بشدة إلى أن تورمت يداي كي أكتفي بوضعهما على حديد الطاولة البارد على أمل أن يخف الألم الذي لم أستطع أن أحبس أعراضه الجانبية بعيناي...اللتان قال عنهما ذلك الحارس أنهما دليل شؤم حين راح

ينشر الفكرة و يزرعها داخل عقول الصغار إلى أن لم يعد أحد منهم يجرؤ على الاقتراب مني غير وحيد الذي كان يمثل بالنسبة لي كل شيء هناك...

وحيد يكبرني ببضع سنوات لكنه مثلي كان طفلا بلا ذاكرة سابقة جيئ به إلى الملجأ و هو تقريبا بنفس عمري ترعرعت معه فكان أقربهم إلى قلبي الفارق الوحيد بيننا أن ملفه يحمل أسماء عائلته التي كانت ضحية جريمة مجهولة لم يجرؤ أحد سرد تفاصيلها عليه كما أنه كان محبوبا و محط إعجاب الجميع نظرا لشكله الجذاب فهو أشقر الشعر أبيض البشرة ذو أعين مميزة بنية في وضح النهار و رمادية كلما أدركها المساء...لذلك لم أره يوما يبدي انزعاجه من نمط الحياة هناك فقد كان يحظى بهدايا كثيرة معظمها كان يقتسمها معي لعله كان طفلا بريئا لا يفقه معاني المسؤولية غير أنه قد كان يحتويني كأب لم أحظى باهتمامه يوما يدافع عني و يحميني كأخ أنجبته لي ليال اليتم والقهر و في مرحلة معينة من العمر تحول وحيد من صديق الطفولة إلى حب أول لا سابق له كما لا حب بعده

قضيت الليلة تلك في خوف من أن يقتحم حجرة نومي ذلك الحارس اللئيم فيتعدى علي مع أني بذلك العمر لم أكن أفهم قواعد العلاقات الإنسانية و بالأخص الحميمية منها كما لم أكن أفهم المعاني الحقيقية للارتباط الزوجي و طريقة إنجاب الصغار و ما معنى أن تكون شرعيا أو لا تكون فقد كنت أعتقد أن زواج الفتاة

بشاب ما يعني بأنهما سيقضيان بقية عمرهما معا يتقاسمان الأكل و الشراب و الغرفة دون أن يحدث شيء بينهما كما كنت أعتقد أن قبلة من رجل تكفي لتجعل من المرأة حبلى و أن الولادة تكون عن طريق شق تحدثه المختصة في التوليد ببطن الحامل فيخرج الصغير و تغلق الفجوة كأن شيئا لم يحدث و على هذا الأساس كانت ردة فعلي ...إلا أني قد حاولت أن أفهم معنى تلك الكلمة التي قذفني بها مما اضطرني إلى مراجعة كل دفاتري و كتبي غير أن ظني قد خاب إذ لم أجد مرادفا لها ضمن مناهج الدراسة و لا حتى ما سبق و أن سمعته من أقوال أيضا فنحن كنا نعيش بمعزل عن الأسرة و الشارع و كل ما يخص العالم الحقيقي كل ما كنا نتعلمه أساسيات الجملة و الأخلاقيات و حب الوطن بغض النظر عن الأسرة إذ كنا بالكاد نحظى بأسرة دافئة للنوم بسلام...لذلك ارتأيت أن أسال وحيد فقد كان يمتاز بالذكاء و نحن نجلس على أرضية الغرفة بعيدا عن شاشة التلفزيون المشترك بين أطفال الميتم بمعزل عنهم جميعا أولائك الذين اعتبروا بأن وحيد قد بات عدوا لهم لكونه قد اختار صحبتي على تجنب تلك اللعنة التي حذرهم منها ذلك الحارس الشهواني...عندها أخبرته عما قاله لي و إذا ما كان يدرك معنى الكلمة فأخذ يحك فروة رأسه لاعتقاده الصبياني بأن تلك العملية تحرك الذكاء فينا مستنتجا الأمر من أبطاله المفضلين في أفلام الكرتون و لشدة ملاحظته تكرار تلك الحركة من قبل الغرباء الذين يأتون لزيارتنا بين الفينة و الأخرى كلما أعجزتهم أسئلة الصغار المقبلين على

فلسفة الوجود و الحياة ثم بعد برهة من التفكير أجابني سعيدا بحصوله على الجواب مرددا...

وجدتها..وجدتها..أجل إنها تعني-

تعني ماذا؟-

الكلمة تعني أنك قطة-

قطة -

أجل قطة فأنت تشبهين تلك القطة السوداء ذات العيون الزرقاء التي كانت تخدشه دائما حال اقترابه منها و لهذا وصفك -بهذا...

ضحكت مصدقة ما جاء به ذلك الفيلسوف الصغير من استنتاج ليستقر بي السرور بعدها حين رحت ألعب رفقته هو من أعاد إلي لعبتي و أزاح عن قلبي دهشته دون أن أعيد الإمعان بمعاني الحروف الزائدة في الكلمة و دون أن آبه لحرفي اللام و الياء اللتان راحتا تخبرانني بأنه لا أب و لا أم شرعيان لي أنا التي كنت أشبه القطة السوداء في لونها و في انعدام نسبها و التي رحت أعيش هناك بين أفراد يقولون أني نادر شؤم مثلها...أني الصغيرة التي حولت المكان من دار الأيتام إلى دار الآثام حسب ما نشر عني من أقوال ترددها أفواه طفولية لن تعرف يوما مدى عمق الجرح الذي خلفته بداخلي تلك الكلمات العادية في تكوينها لجملة مؤذية عميقة المعنى و الوجع

الحياة هناك كانت تجسد معنى اليتم بكامل تفاصيله...إذ أنها لم تخلوا من حالات الاعتداءات الجسدية و الجنسية على حد السواء و التي سلمت منها بمعجزة إلهية بالرغم من أني لم أسلم من حالات السب و الشتم و الضرب أحيانا ...

لقد كنت أحب الرسم على الورق الأبيض بدل كتابة الدروس و مراعاة ضوابط الخط و صغر الحركات المصاحبة للجملة لذلك فغالبا ما كنت أعاقب من طرف المعلمة...لم أكن أحب حروف الهجاء بل كنت أعشق ما بالكون من ألوان أكثر ما كنت أجيد رسمه الوجوه و الأجساد كنت أحاول دائما أن أسقط ما بمخيلتي على الورق فكانت معظم رسوماتي عبارة عن تهيآت تعكس وجهي والداي...البعض منها كانت تمزق من طرف الأطفال الذين كانوا يستغلون لحظات غياب وحيد فقد كنت هزيلة الجسد و مسالمة أكره أن يكون لي أعداء خاصة من تمنيتهم أصدقاء لي...أما ما كان ينجوا منها فقد كنت أصطحبه معي إلى السرير ليلا أضع رسمة لأمي على جانب معين و رسمة لأبي على الجانب الآخر أما وحيد فقد كان بقلبي و لم أكن بحاجة إلى رسمه خلال تلك السنوات المعدودات...

الشخص الآخر الذي كان دائم الاعتناء بي و الذي خصص لي متحفا بمكتبه لأعلق على جدرانه رسوماتي هي السيدة حواء...امرأة تودع الثلاثين من عمرها لتستقبل الأربعين بكل حب أمضت حياتها كلها تعتني بالصغار تراقب نفسيتهم تعلمهم

كيف يغدون أسياد أنفسهم تعزز ثقتهم بذواتهم حتى يتمكنوا من مواجهة قدرهم دون العزوف للعزلة و الانحراف و فوق كل ذلك قد كانت تمثل بالنسبة لي أنا شخصيا صورة الأم المثالية...كانت زياراتي لها عديدة و لا تخلو أبدا من قطع الحلوى و ذلك الكعك الطيب الذي كانت تأتينا به من بيتها...بيتها الذي كنت أحلم بأن أكون فردا منه فطالما طلبت منها بأن تخبرني عن تفاصيله تلك التفاصيل الصغيرة التي لا تعتني بها سوى سيدة البيت فقد كنت أسالها عن عدد الغرف و ألوانها عن الشرفة و أزهارها عن الأفرشة و طرازها عن الستائر و مواسمها لكي أجد في الليل مكانا أسكن فيه أحلامي...كانت كلما زرتها وهبتني ورقة بيضاء و مجموعة من الألوان المختلفة لتطلب مني بعدها أن أرسم ما أشاء فهي الوحيدة التي لم تطبق علي يوما قوانين العقوبات هناك...كان مكتبها جميل مرتب و هادئ مثلها تطل نافذته على شارع ضيق به شجرتان كبيرتان و رصيف يفضي إلى ذلك العالم المجهول الذي لم أسام يوما من تخيله فلكم أحببت العالم من هناك كم أحببت أشعة الشمس المتسللة إلينا من خلف تلك الستائر الزرقاء التي كانت تشعرني بأني ملاك صغير يحلق في السماء كلما نسيت حقارة لوني هناك...و لكم أحببت الرقص على تلك الأرضية المفروشة ببساط أخضر مرسومة عليه أشكال الحيوانات أرقص فوق غابة السنديان الخاصة بي كلما باشر الشتاء في الهطول خارجا دون أن تجعد قطرات الماء شعري أو تبلل أرضية خيالي كي ألتفت إليها قائلة:

أنا عصفور لم تحطم بعد عشه الأمطار...-

لكن قولي ذلك لم يكن يسعدها كثيرا كنت أراها كيف تبتسم لي لولا أن عيناها كانتا تقولان عكس ما تبديه تماما فتفضحانها و تكشفان سرها فهي لم تكن الوحيدة القادرة على قراءة تعابير الوجدان وسط تلك الغرفة الحميمية أين يتسع العالم لي بين جدران أصغر بقعة على أرض الميتم...لا شك في أنها كانت تأسف لذلك الوضع المزري الذي كنت أعيشه فقد كنت أدعس على الربيع لأستقبل المطر وكانت هي دائما تخرج من صمت جلستها الهادئة تلك كي تحيطني بيديها كما لو أنها مظلة قد خلقت لتجنبني أهوال القدر كلما هطل شتاءه على من لا سقف يحميه و لا حطب يدفيه و لا بيت يؤويه عدا دار الأيتام...

طالما أخبرتني أن لي مستقبلا زاهرا في الرسم و أني سأتحرر يوما من قوقعتي المغلقة لأصير رسامة حرة لها وزنها و مكانتها بين أسماء ذلك العالم الكبير فهي لم تكن مجرد طبيبة تختص في قراءة سلوكيات الأطفال و نفسيتهم فقط بل كانت العرافة أيضا...و لكن بالرغم من أن انقضاء الزمن هناك كان يزيدني حافزا في التشبث بذلك الحلم الذي كنت أشهد مواعيد اقترابه المعانقة لاحتمالية استيقاظي ذات صباح و أنا أحتضن الحرية بكل حواسي إلا أني قد كنت شبه منعدمة الرغبة في الحصول عليها بحكم أن السجين هناك يحب الحرية كما لو أنها فكرة غير قابلة للتحقيق فإذا ما انصهرت القضبان عرف بأن له موعدا أزليا

للخوض في معارك لا متناهية مع الثيران و لكن و قبل أن أفقد صلاحية البقاء وجدتني أفقد عالمي كله يوم استيقظت على فاجعة فراق لم أضعه يوما في الحسبان...فأنا لم أخسر رسوماتي صباحها و لا دميتي لكني كنت أهيأ لتوديع وحيد بعد أن قررت إحدى العائلات الفاحشة الثراء أن تتبناه فتتخذه ولدا و يومها لم يكن بيده القرار...هو لم يخذلني...لم يتخلى عني كما لم يستطع البقاء معي و إلى جانبي...لم يكن له صوت للاعتراض...كما كان لابد له أن يتحرر من عبودية اليتم يوما ليجرب معاني جديدة للحياة مع أسرة أحبته كما لو أنها أنجبته...

أتى إلي حاملا كل أغراضه بغية أن يهبها لي و لكني أوليته ظهري ثم رحت أركض بالفناء فترك كل ما أتاني به أرضا ليتقاسمه الأولاد من بعده دون استئذان ليلحق بي مناديا متوسلا الرجاء

جوين مهلا...جوين...أرجوك توقفي...-

أعمتني الدموع عن الرؤية لأتعثر و أسقط فوق الحصى فأصبت بكسر بسيط برجلي كان ذلك قبل أسبوع مغادرته أي خلال فترة الإجراءات الرسمية...

مكث إلى جانبي يقص علي الدعابات يقول لي ما بال قطتي السوداء إلى متى ستظل على هذه الحال ثم يقرب يده مني قائلا :

هيا اقضميها فإنها لذيذة و طعمها يشبه طعم الجبنة البيضاء-

أضحك رغما عني ثم أنفجر بالبكاء فتأتي الممرضة لتخرجه من الغرفة...لتزيد من ألمي النابع عن ذلك الكسر الذي لم تكشف عنه الإشعاعات الطبية...الكسر الذي خلق بقلبي فجوة عميقة راحت تكبر بداخلي مع انقضاء الأيام بغيابه

ثم و قبل يومين من مغادرته جاءني بورقة و قلم رصاص وضعهما فوق سريري ثم طلب مني أن أرسم صورة لي و صورة له كي يحتفظ كل منا بوجه الآخر و بهذا يبيت متيقنا من أني لن أنساه...

و ليغادر وحيد و أبقى وحيدة بالمكان أخذ معه رسمتي بعد أن طبع قبلة أخيرة على وجنتي و وجعا خالدا بقلبي المحترق بغيابه كما لو أنه قد وضع فوق جمرة من نار...ساءت أوضاعي و بت لا أكلم أحدا حتى حواء...تحولت رسوماتي إلى خربشات و يوم أمطرت السماء لتبكي معي سنة بلوغنا الفراق قلت لها :

اليوم بات بإمكاني الاعتراف بأن غيابه قد حطم قلبي و لتكسر ما تبقى مني الآن هذه الرياح المصاحبة للأمطار...-

وهبتني حواء من مسكنات الحديث ما استطاعت و لكن ذلك لم يكن كافيا لهزيمة حبه المحاصر لقلبي فمع مرور الزمن أخذ اليأس يستقر بداخلي شيئا فشيئا بعدما فقدت الأمل نهائيا في رؤيته ثانية فهو لم يأتي لزيارتي أبدا لهذا كنت قد اكتفيت بالعزلة و الاستمرار في تخيل ما قد طرأ على جسمه و شكله من

تغيرات...أضفت إلى صوره شاربا ثم أزلته وجدته وسيما بملامحه الطفولية كما اعتدته ثم أني ما عدت بوقتها أرسم سواه...كأني بغيابه قد استفقت على تلك اللحظة التي فقدت فيها أمي و أبي و كأنه كان هو تلك الأسرة نفسها التي كنت أبحث عنها لتضيع مني دون أن أحرك ساكنا لاستعادتها....

قبيل بلوغي الثامنة عشر عمرا سمعت بأن حواء ستقدم استقالتها مما جعلني أفقد ما تبقى لي من صواب لولا أنها قد قررت تهريبي من هناك تماما في آخر يوم عمل لها...كانت خطتها محكمة فحارس المناوبة الليلية كان يقربها تم توظيفه بعدما كشف أمر ذلك اللئيم حالما ارتفعت نسبة الاعتداءات على الأطفال ليلا و اكتشف بأنه الفاعل و ليمضي بقية عمره مثلنا يحرس الحرية خلف القضبان...إلا أن طفلة صغيرة قد رأتني حاولت فضح الأمر لكني همست بأذنها قائلة:

الأمير ينتظرني خارجا -

فابتسمت و مضت لتكمل الحلم منصهرة فيما قرأته عن حكايا الجميلات و الأمراء دون أن تدقق في شكلي المنصهر في الظلام...

حال خروجي فان أول ما انتبهت إليه هو قصر تلك الأشجار التي كنت أتخيلها عالية بحكم الإطلالة من الأعلى كما انتبهت لتعاسة ذلك الشارع الخالي ذو الإضاءة الخافتة و المصابيح

المنكسرة...أخذتني معها إلى بيتها دون أن تعلم بأنها ستحقق بذلك أمنية طفلة صغيرة قد أتت بها من دار الأيتام فكانت تلك الليلة الأولى التي أغفو فيها باطمئنان ثم في الصباح الباكر حال استيقاظي و جدتها تحضر لي ثوبا جديدا لأرتديه بعد استحمامي بالماء الدافئ دون خوف من معرفة هوية الطارق إن كان طفلا أو شخصا آخر تغريه مهنة الاعتداء و بعدما ارتديته ووقفت أمام المرآة رأيت كم أني نحيفة و كم أن عيناي رغم اختلافهما مميزتان...لعلي كنت بحاجة إلى أن أرى نفسي خارج الميتم لكي أرى ما لم يلحظوه بداخلي من جمال...فالمرايا في حقيقتها لا تعكس الظاهر بل هي انعكاس للباطن و ما نخفيه من خلجات ذهبنا بسيارتها معا إلى محطة الحافلات و أنا في دهشة من تلك البيوت الكبيرة و الشوارع الواسعة...المحلات و المباني الشاهقة و الناس من مختلف الأجناس كلهم يتعايشون وسط ذلك العالم الخفي خلف نافذة الميتم المطلة على ذلك الشارع هناك...اشترت لي تذكرة و أعطتني مبلغا من المال رفقة عنوان أحدهم ثم أوصتني أن أبحث عن ذلك الشخص و أخبره أني من طرفها...

و أنا أهم بركوب الحافلة استأذنني العامل قائلا :

حقائبك سيدتي-

نظرت إليه بشيء من العاطفة و قد كانت عوضا عن الخوف الذي اعتدته تحمل بطياتها شيئا من الإعجاب فقد حدثني بصفتي إنسانا لا مخلوقا مخيفا يثير الاشمئزاز...كلامه كان يتضمن نوعا

من الاحترام و إن كان ذلك بحكم عمله أو أخلاقه فأنا لم أحاول تفسير النوايا اكتفيت بحسن الأفعال..

أجبته بهدوء لأن لا يسمع ترددي أحد الركاب فيدرك أني أمضي نحو المجهول نحو ورقة تقودني إلى عنوان منفتح على السؤال

لا حقيبة لي ...-

كانت المسافة طويلة و كانت رسمة وجه وحيد رفيقي الوحيد أثناء السفر...وصلت متعبة إلى مدينة كبيرة لا تعرف للنوم موعدا و لا للنهار ساعة...ذهبت إلى أقرب هاتف عمومي حسبما دلني أحدهم...اتصلت بذلك الرقم ليرد علي رجل طاعن في السن..

ألو...-

شعرت بالخوف فسمع صوت نفسي الراجف

ألو...كيف بإمكاني خدمتك-

أنا ...أنا من طرف حواء-

جوين...لابد و أنك أنت-

حال ذكره لاسمي شعرت بنوع من الاستقرار النفسي..

أجل...هذه أنا-

لديك عنواني صحيح-

أجل هو معي مكتوب على ورقة -

مزقي الجزء الذي يحتوي رقم الهاتف إن كان بنفس الورقة ثم اتركيها لسائق سيارة الأجرة كي يستدل بها على العنوان و أنا سأكون بانتظار وصولك...-

رحلة أخرى رحت أخطوها وحيدة و هذا يعني أن وحيد كان معي بقلبي بشكله الطفولي في الورقة المتهرئة و كنت أنا حرف التاء في الكلمة التاء المرتبط وجودها بفكرة وجوده...أجلس في المقعد الخلفي يرمقني السائق بين الحين و الآخر من خلال مرآته الأمامية دون أن يقرأ خوفي المنعكس في رجفة يدي فقد كنت أقعد خلفه مباشرة أتخذ وضع الدفاع لأهجم عليه إذا ما شعرت بشيء مناقض للمنطق رغم أني لم أكن أعلم إن كنا نسير على الطريق السوي أم أني ذاهبة معه إلى أبعد نقطة من الهلاك...

-يا آنسة...

عفوا...هل ناديتني؟-

لقد وصلنا هذا هو العنوان أليس كذلك؟-

آه... أجل...شكرا...-

و قبل أن أقدم له ثمن الأجرة كان قد فتح ذلك الشيخ لي الباب

قائلا

أهلا يا ابنتي كنت قلقا بشأنك...-

ثم قدم له مبلغا مضاعفا بالامتنان...و مضى السائق في دهشة يعاين الاختلاف ما بين شكلي و شكل ذلك الرجل فقد ظنه والدي...

هو شيخ ذو لحية بيضاء و عيون بنية مكثفة بالتجاعيد...جسده ممتلئ نوعا ما شعره يكسوه الرماد و البياض معا أعتقد بأنه بعمر جدي لو أني كنت أمتلك جدا...كان يرتدي منامة نوم زرقاء صعد على الدرج الخشبي ثم فتح لي باب بيته و دعاني للدخول كنت خائفة خاصة و قد أدركت أنه يعيش لوحده فكل أبنائه بالخارج و زوجته متوفية منذ أعوام...لكن قلبي ارتاح حين سمعته يتحدث إلى حواء ليبلغها بنبأ وصولي كي يمرر لي بعدها سماعة الهاتف فرحت أحدثها لما يفوق الربع ساعة...طالما كنت أسعد بسماع صوتها...و لم أزل أفعل..

حضيت بعشاء هادئ رفقته كان نادر الكلام كما أني لم أقل له الكثير وقتها فمن خلال إجاباته فهمت أنه يعرف عني ما يغنيه عن السؤال...ثم فتح لي باب غرفة قال بأنها لي واضعا بيدي مفتاحها كي يطرد من بالي الوسواس...

بعد بضعة أسابيع تمكن من كسب ثقتي حتى أني بت أراه كل عائلتي...اكتشفت مع الوقت مدى طرافته و شباب روحه هو الذي

كان يشاركني قصص مراهقته و أيامه الخوالي...هو الذي لم أخجل من أن أخبره عن وحيد و مدى اشتياقي له...

و هكذا مرت بي الأشهر هناك إلى أن تذكر ما قد أخبرته عني حواء من قبل حول موهبتي في الرسم ليفتح أمامي أبواب الحياة التي خلتها ستغلق بوجهي حال خروجي من الميتم المعتم...نقلني إلى معهد الفنون الجميلة...تكفل بحصولي على أوراق رسمية من خلال اتصاله بأشهر مكاتب المحاماة بالبلاد كما لم تقصر حواء في تزويده عما يخصني من معلومات...كي أدرك في النهاية بأن له فروعا و شركات تخص الملابس و عروض الأزياء... و لأغدو بعد فترة وجيزة من حصولي على شهادة الإبداع بامتياز مصممة و عارضة أزياء تركض خلفها المجلات بسبب ما يميزها عن الآخرين من اختلاف...

هذه أنا صغيرة دار الآثام بات لي أم تدعى حواء و أب شيخ يدعى العم كريم...احتضناني و لكن ذلك لم يستطع أن يملأ الفجوة التي أحدثها بقلبي غياب وحيد...الذي كنت أفكر فيه عندما دقت باب مكتبي السكرتيرة قائلة

عذرا سيدتي وصلتك هذه الباقة مع دعوة عشاء من صاحب إحدى الشركات -

ألم يخبرك الموظف الذي جاء بها إلى هنا عما يريده مني صاحبها بالضبط ؟-

لا سيدتي و لكن المعروف أن شركة... - ذكرت الماركة التجارية - مهمة جدا في السوق و لا أعتقد بأننا نود تضييع فرصة- العمل معهم

حسنا لا عليك ضعي الباقة هناك-

ورد أحمر...رغبة عاشقة بلهاء يأتيني من رجل مجهول يطغى عطره على الباقة كلها لأقرر المقامرة بقبول دعوة العشاء...كان صاحب ذوق راق سرعان ما اكتشفت الأمر حال وصولي إلى هناك كان يعرفني لكني لم أكن أعرف عنه شيئا جاءني النادل حال وصولي و اصطحبني إلى الطاولة المحجوزة لأجلي تماما بالقرب من عازف البيانو...ذلك العازف الشاب الموهوب الوسيم...شدتني ملامحه إليه أكثر من سحر الإيقاع المتفجر من بين أنامله لكنه سرعان ما انتهى من العزف ليغمره من جاء لقضاء وقت طيب و رومانسي هناك بالتصفيقات...استدرت ناحية الباب أترقب شخصا لا أعرف شكله و لا طباعه لكني انتقيت لأجله أجمل قطعة صممتها من الثياب ليفاجئني ذلك العازف القادم من خلفي ممسكا بيدي مقبلا لها دون استئذان

أتمنى ألا أكون قد جعلتك تنتظرين طويلا...-

في الانتظار تكمن جمالية اللقاء..فلا تعتذر-

كنت سأجيب بطريقة أخرى لولا أن رائحته هي نفسها التي كانت تفوح من باقة الصباح...لم أسأم من التحديق إليه طيلة فترة

العشاء و هو لم يمانع و لم يبدي ملاحظته إلا دقيقة سهوي

مرحبا إلى أين شردت أخذ يلوح بأصابعه البيضاء-

جبنة بيضاء...-

هل اشتهيت الجبنة -

من أنا ؟-

أجل...فقد قلت جبنة بيضاء-

لا...عفوا تذكرت شيئا ثم ابتسمت-

لابد من أنه مميز ليجعلك تبتسمين-

من ؟-

الشيء الذي تذكرته-

آه...نعم شيء من ذاكرة الطفولة-

جميل...-

و أنهينا العشاء دون أن نتحدث عن أي شيء يخص العمل و دون أن أساله عن السبب الخفي خلف دعوته لي...

عرض علي المشي خارجا كان الجو باردا نوعا ما على الأقل

بالنسبة لامرأة ترتدي ثوبا عاري الظهر فناولني معطفه من باب النبل...ثم جلسنا قليلا أمام نافورة ماء بحديقة هادئة الأنوار بعدما أتعبني الكعب العالي...سمع صوت هرة فقال

قطتي السوداء-

كرد فعل لا إرادي جاء سؤالي له

ماذا ؟-

فأخبرني بأن صوت الهرة ذاك قد ذكره بأن مخزون السمك المعلب الخاص بقطته قد أوشك على الانتهاء...لأكتفي مرة أخرى بالابتسام

عرض علي أن يوصلني إلى البيت بسيارته فلم أرفض نسي معطفه معي أو أنه تعمد فعل ذلك لا أدري حقيقة و لكني لم أنتبه للأمر إلا و أنا أهم بدخول غرفتي لأغير ملابسي و هاتفه يدق من جيب السترة المعلق بخزانتي

ألو-

مرحبا هذا أنا لقد نسيت هاتفي معك-

صحيح أنا آسفة فكرت في الاتصال بك غير أننا لم نتبادل أرقام الهواتف فقلت لابد و أن أتدبر الأمر حال وصولي غدا إلى - الشركة

لا عليك...لاحظت بأنك قد كنت مضطربة نوعا ما بالسهرة وكثيرة السهو أيضا هل بدر مني أي سوء يستدعي الاعتذار؟-

لا أبدا-

بامكانك الاعتراف لست أمامك لتجاملي...الهاتف وسيلة جيدة للبوح-

في الحقيقة ملامحك ذكرتني بشخص-

و أنت تشبهين شخصا لم أره منذ زمن بعيد-

آه حقا-

أجل -

و هل بمقدوري أن أسألك عن هوية هذا الشخص ؟-

اذهبي إلى جيب معطفي ستجدين صورتها هناك و لك أن تحكمي-

هي أنثى إذن ...لا داعي فانا لا أحب التطفل على ممتلكات الغير -

أنا من طلب منك هذا-

بما أن الأمر كذلك فلا مانع لدي-

فتحت خزانتي و معطفه معلق بين أحضان ألبستي التي لم يسبق لها أن عانقت رجلا...اقتحمت يدي جيبه لأخرج منه ورقة قديمة فتحتها فإذا بها أنا...أنا كما راني لآخر مرة أنا الطفلة الصغيرة التي تركها خلفه في دار الأيتام و مضى...سقط الهاتف مني كما سقطت دموع الفرح و القرح ...دموع شهوة الماضي الممزوجة بنشوة الحاضر..أقفلت الخط على دهشتي لكني لم أكن أعلم بأنه يركن سيارته على مقربة من بيتي إلا و هو يهم بطرق الباب كالمجنون ليفتح له عمي كريم

سأله قائلا:

أين هي جوين...أين جوين ؟-

استوقفه عمي كريم لدقائق معدودات بغية أن يتعرف على هويته

أخبره بأنه وحيد فأفسح له المجال ليقتحم غرفتي فيجد صورته ترقد إلى جانب صورتي فوق فراشي صورتان ولدتا على سرير ميتم لتجتمعا فوق سرير آخر متيم به...

هذه أنا جوين و هذا أنت وحيد جمعنا اليتم و فرقتنا الظروف لتحتضننا على متن سفينتها مرة أخرى الأقدار كأنما الحياة شاءت أن تعلمنا بأنه و في النهاية مهما أبدت لنا هذه الدنيا من وجوه البشاعة فإنها تحتفظ لنا دائما بوجه آخر جميل الملامح يدعى بالحب...الحب الذي تكفل بنا متبنيا وجودنا لنجد في النهاية لوجودنا معنى...

هذه أنا جوين فتاة صغيرة دار الآثام و هذه هي قصتي

عاشق من زمن القصيدة...

من وسط المدينة الثرثارة ناداني صوتها وأنا أعبر زقاق الفضول إلى الساحة المكتظة لرؤيتها تعلو منبر الكلمة أميرة و الناس كالحاشية يلتفون حولها حجاجا مثلي يسعون خلف قلبها...أزاحمهم في الحشر سباقا للعذاب...لرؤيتها إلى أن أرمقها سمراء تكحل بسواد الليل عينيها و تحجب بوشاح العفة شعرها مرددة قولا يشبه قصيدة الشعر في إيقاعها بكل جرأة تلعن الناس و فسقهم معلنة عن جرأتها في قولها

هذه أنا امرأة تدعى بالحرية

تعبر الشوارع شبه عارية

تقبل الثغور لكنها لا تقبل لقب الزانية

ثيابها ممزقة لكن إياك أن نخالها بالية

فهي تنسب لتلك الماركة العالمية

هذه أنا امرأة حرة تؤمن بالمساواة المعلنة

ما بين الرجل و المرأة

أقف في وجه الفتن و لكن لا بأس أن أفتن

فعطري لن ينقص الأوكسجين

بينما صوتي يدعو إلى الساحة الراقصين

أنا امرأة تدعى بالحرية

تبناني معظم الكتاب والمنافقين

ممن يقولون عن أنفسهم متحضرين

من لم يجدوا لبلوغ الشهوة غيري كسبيل

هذه أنا امرأة تدعى بالحرية

صديقي خنثى لا تضاهيه في السلوك أي أنثى

زوجي هو حبيبي لا رابط يجمعنا

غير كلمة أحبك و أفعال اللذة

ابني غير شرعي لكني أم عذراء هل لديكم مشكلة

أجل أنا لدي مشكلة

مشكلتي أننا نشوه صورة مريم

و نحن أبعد من أن نكون مثل البتول خلقا و عفة

مشكلتي أننا قوم نؤمن بلوط ...نلعن قومه

و نمجد أفعالهم في الملاهي..المقاهي...في الليالي الملعونة

مشكلتي أننا نخلط ما بين الشهوة و فض البكارة و الرومانسية

و بين ما جاء في الشعر العذري و أفعال السرير المباح للسكر

مشكلتي أن عشيقي يريدني عاهرة و يريد زوجته عذراء طاهرة

مشكلتي أننا تركنا الحجاب و الستر و مجدنا العري و الفسق

كنا آدم و حواء بتنا لا نفرق بين الجنسين فنحن اليوم ثلاث

بعنا ديننا و احتفينا بعهرنا

ثرنا على تقاليدنا

نسينا أن نثور على أعدائنا

ابتغينا الحرية و هي أول ما جاء به إسلامنا

و لكن يبدو أننا لا نفهم لغتنا

نحن نفقه ما تمليه علينا شاشات التلفزيون

و من الآلات ما صنعنا

نحن الذاهبون نحو الهلاك

داعين الله أن يهبنا جناح ملاك

هذه مشكلتي

فتاة مسلمة...حرة

لم أفهم حريتي كما أملتها علي ديانتي

ثم مضت غير أبهة للتصفيقات فقد تنصت عليها و أنا أعبر الطريق محاولا الإمساك بطيفها و هي تقول لصديقتها

كنت بحاجة إلى أن أرى شخصا ما و هو يصفع وجهه بمرارة وسط ذلك الحشد الغفير من الجمهور بدل أن يصفق لي حتى - أتيقن من أن المسرحية قد نجحت...

من فرط إعجابي بها رحت أهجوها بالرغم من أني قد فهمت

مرماها مقاطعا لسبيلها و ألفاظها

لم أكن أعلم أن مسرح بريخت قد نقل إلى هنا...يا من تتحدثين عن الدين رافعة صوتك كأنك في دار الأوبرا كفاك عبثا و- قولي انك تشتهين الحرية و تبتغين الشهرة و أنا سأفتح لك أبوابا أخرى

كي تلتفت إلي بردها اللاذع قائلة :

إلى متى سنبقى محور حديثكم.. تتغزلون بنا في قصائدكم و تهجوننا إذا ما رفضنا تلبة رغباتكم ترفعون القلم عنا في سكركم و نشوتكم و تضغطون علينا بحكم الدين حال تمكنكم...بالله عليكم دعونا فما شأنكم بنا...لنا أعمالنا و لكم أعمالكم الله خالقنا و هو من يحاسبنا إن أخطأنا و يجازينا إن أحسنا و هكذا سيكون الأمر معكم فانتبهوا لأفعالكم فذلكن خير لكم..

كي أغير مسار مشيتي مشبعا بالخيبة و بقلبي لها رغبة في المعانقة أردد بيني وبين نفسي ما أحفظه لجميل بثنية قولا

وأول ما قاد المـودّة بينـنـا * * * بوادي بغيضٍ يا بثين سِبابُ

وقلت لها قولاً ، فجاءت بمثله * * * لكل كـلامٍ يا بثيـن جوابُ

فأي واد هذا أغرقت نفسي فيه أنا و أي حب ذلك الذي ابتليت به من نظرة ...ليدركني المساء حزنا و أنا في أولى مراحل الاحتضار أقضي ليلتي الأولى وحيدا كيتيم ابتلته بالبعد عمن

يحب الأقدار مع أنها لم تزد على قولها ذاك شيئا فكيف تراها أشعلت بي لهيب النار كي يزيدني من اللوعة ما يدور في ذهني لأبو جعفر بن عطية من أبيات حزنا

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا *** فقد آن أن تنسى الذنوب و أن تمحى

و ها أنا في ليل من السخط حائر *** و لا أهتدي حتى أرى الرضا صبحا

و ليستقبلني الصباح على ماجاء في ديوان نزار قالت لي السمراء...واقفا محتارا بين ما أرتديه ليومي المبتدأ بالأمنيات و أحلام اللقاء فأجرب الأسود أمام المرأة ثم أخلعه رافضا إياه بغية ألا أبدي لقاتلتي انهزامي و ما أقمته على نفسي من حداد مرتديا في النهاية قميصي الأبيض المكفن فيه قلبي رافعا راية الاستسلام أنا من اعتاد الإغارة على مدن النساء و من أقسمن له بأن كيدهن بحضرته تدركه رياح الثواب أنا من كانت قصائدي لا تخلو من أضرحة الشهيدات المتيمات...لألتقي في العمل صديقي رياض فأشكو له ما انتابني من هوس...

آه لو تعلم ما جرى لي البارحة مستطردا في سرد الأحداث

يضحك غير مستغرب و هو يخبرني بأنه مذ عرفني أدرك هوسي بالنساء

لكني أبرء نفسي من هذا الجرم مشهرا هزيمتي مفسرا ذلك باختلافها عن الأخريات منشدا ما أطرب الناس لحنا طربا و حرك بداخلي وجعا

بِرُوْحِي فَتَاة بِالْعَفْاف تَجَمَّلَت وَفِي خَدِّهَا حَب مِن الْمِسْك قَد نَبَت

وَقَد ضَاع عَقْلِي وَقَد ضَاع رُشْدِي واستبدت وَأَقْبَلَت

فأعذره عن رده في قوله لي

و لما لم تصطدها بشباكك

لأرد عليه بما جاء على لسان ليلى بمسرحية شوقي

فإن القرب بالروح * * * و ليس القرب بالجسم

و يسألني بعد ذلك عن أوصافها فأجيبه أولم تسمع فاليري حين قال

إنها قدسية مغلقة * * * نارها توقد من غير غذاء

خيم الصمت على أرجائها * * * و على صفحاتها رف الضياء

يتعجب لكوني لم أقل يوما شيئا مماثلا عن غيرها من النساء

ألهذه الدرجة تجدها جميلة فأجيبه بل و

هي البدرُ حسناً، والنساءُ كواكبٌ * * فشتّانَ ما بين الكواكب

والبدر

ليعلق ساخرا مجنون زمانك ما عهدتك عذري الهوى

فاكتفي بالقول :

يقولون مجنون يهيم بذكرها * * * و والله ما بي من جنون ولا سحر

يعلق رياض مربتا على كتفي كل يبكي ليلاه يا صديقي لا لوم عليك بعد الآن

لينصرف بعدها كل منا إلى شغله و لا شغل لي غير ذكرها فقلبي قد اعتاد عليها بدل أن يعاديها...و تمضي بي الأيام الجاحدة لا صدفة و لا قدر يرحمانني و لا قلبي إلى أن ألتقيها ساعة إعلاني لنسيانها جالسة على إحدى الكراسي الحديدية المطلة على البحر اللاهث خلف الرمال فلا أتردد في الجلوس إلى جانبها محافظا على مساحة البعد بيننا حتى لا يلامس جسدي جسدها خشية أن تخالني راكضا خلف جسدها أنا الذي حرمت علي نفسي ابتغاء غيرها...إلا أن هاتفها قد شلني بعد دقائق من مجالستي الصامتة لها كنت قد تأكدت من خلالها أنها نسيتني حين لم تبدي لوجودي اهتماما أبدا كما لم تعاتبني على فعلتي السابقة و ما بدر مني بوقتها أنا المازوشي المشتهي للعقاب و هي ترد على ذلك الاتصال المفاجئ بقولها هذا

حنين...تسكت مستجيبة للصوت القادم من هاتفها لتكمل حديثها مسترسلة

عشاق البحر هنا بوحدتي يعيرونني

و الرمال دونك غذت لغة لا تعبّرني

من طيور السماء لا رسائل تصلني

كما لحنين الليل وحدة تضاجعني

و للصبح من التيه أدعية تحفظني

و مؤونة أحلام مشلولة بك تربطني

و عجوز هنا للغجر تنتمي في كل صباح تقرأني

لتأخذ قوتها من فناجين قهوتي

لم أحدث ملائكة السماء يوما عن غيرك

لم أكن غريبة عن بيتي إلا بغيابك

لم أكلم يوما أبناء البحر إلا لفرط اشتياقك

و لم تكن حرارة جسمي موسمية إلا بحمى حنينك

و لم يفصح الليل عن سر حزنه إلا برحيلك

أصبحت أستمع إلى أغاني لم أفهمها بحضرتك

أمسيت أجالس المقاعد وحيدة حاملة بيدي قصتك

و بت أسامر الوسائد ضجرا بعد غفوة الزمان بك

لأبقى مع فيروزي أرثي أمسي مغنية لطيفك مهدية إياه نغمها الطروب

في قولها المتردد بين أشعار صوتها الملائكي الملامس للقلوب

إذا كان ذنبي أن حبك سيدي فكل ليالي العاشقين ذنوب

وعلى قولها مضيفة فأنا أيها الغائب المرغوب عن حبك أبدا لا أتوب

وقبل أن تنهي المكالمة تقول بنبرة الحيرة

وحيدة أنا أرقد بجب الذاكرة فأين قوافلك سيدي أما حانت بعد مواعيد عطشها ...

ولتغادر بعدها تاركة لي أسئلة شائكة لما ورد أولا في قولها حنين...فهل كان ذلك اسمها أم عنوانا اختزلت به مشاعرها قبل أن تشرع في شرحها...كي أتصل برياض منهارا ليصلني صوته وهو على الجانب الآخر من المدينة مذهولا

ما بك يا هشام على رسلك فأنا لم أفهم قصدك بعد-

إنها مرتبطة يا رياض لقد خاب أملي...-

أضرب بيدي على المقعد الحديدي لتقع على شيء أكثر ليونة وكان ذلك الشيء رواية قد نسيتها هناك لاستعجالها...فتحتها كي أجد بها إهداء مكتوبا بخط اليد رجحت أنه موجه لها إذ انه قد جاء على النحو الآتي

إلى الآنسة بلقيس ....

هشام أتسمعني..-

أكرهها و أشتهي وصلها -

قلت هذا فأدرك أني أقصدها فقد أغلقت الخط بوجهه و هو يقول :

آه يا نزار زمانك ماذا فعلت بك هذه المرأة -

رحت أركض علني أجدها فوجدتني متأخرا عن مواعيد الوصول إليها بعد أن أضعتها بين زحمة الوجوه الكثيرة المتشابهة تلك التي أبدا لا تشبهها..

كي أعود إلى بيتي وحيد المساء بغرفتي مع قهوتي و كتابها أتفحص أوراقه بحثا عنها إلى أن وقعت عيناي على أسطر قد قامت بتلوينها يسأل فيها صاحبها ما هو الحب برأيك ؟

لتأتيه الإجابة من بطلة الحكاية

الحب صدق الجدة في الحديث عن الخرافة..

حمى جندي باغته الموت على أرضية المشفى فتذكر ابتسامة فتاة قتلها العدو على مرأى منه

انه أحلام مراهقة تملكتها أغنية و قصيدة شاعر مبتدئ لم يجد مصفقا له سواها

الحب مسرحية واقعية نصها لا منطقي و أبطالها متوهمون

انه عقدة ما بين الاشتهاء و التملك

الحب ما حلمت به البارحة فتجسد لك اليوم وستفقده غدا و أبدا

الحب نرجسية الهوى فلا هو لك و لا أنت أحق به من غيرك

انه آخر ثلاث نقاط بالصفحة الأخيرة من الرواية الطويلة

الحب هو كل ما لم أقله لك و كل ما ستفكر به أنت نيابة عني و عن غيرك

فما هو الحب برأيك...؟

كي أجد نصا آخر على بعد صفحات من ذلك تضع عله لونا آخر مكتوب عليه

جئتك يا حبيبي قائلة

اشتهيتنا أطفالا غير اللهو من الحياة لا يفقهون

اشتهيتنا أطفالا لفرط براءتهم من تشابك الأيادي يخجلون

اشتهيتنا أطفالا أبواب الغرباء يطرقون و على حين غفلة يختفون

خلف حائط مهدم يحتمون و بفرحة من جازف بحياته ثم نجا يضحكون

اشتهيتنا أطفالا قطعة الرغيف يتقاسمون على موعدهم في الساحة يجتمعون

ساعتهم جرس مدرسة بعيدا عن حكم الدين إليه يتسارعون

اشتهيتنا أطفالا أكبر مخاوفنا حكاية غول خرافي الصفات والجنون

اشتهيتنا أطفالا أكبر أحلامنا ختام حب أبدي في قصص يكذبها الناضجون

اشتهيتنا أطفالا للأهالي يقلدون و لأفلام الكرتون يخلصون

اشتهيتنا أطفالا صغارا خارطتهم أسرة صغيرة و غير هذا من العالم لا يبتغون

فلت لي يا معشوقتي أما أنا فاني قد

أحببتنا عشاقا بين مدن الهيام و قصوره الحالمة يتيهون

أحببتنا عشاقا لفرط غيرتهم على شواطئ الحبيب حراستهم المشددة يعلنون

أحببتنا عشاقا غرباء الصدفة يلتقون أحباب الزمن يصبحون ثم أزواجا يبيتون

على العهد دائما يبقون و هم للإخلاص بأنواعه الطاهرة المقدسة يمتهنون

أحببتنا عشاقا على أوتار الطرب يرقصون و مع الشموع و الورد يمتزجون

حياتهم أحلام محققة بعيدا عن عقد مدنهم و القانون

أحببتنا عشاقا أعظم رهاب يحاصرنا يتمحور حول فراق يشتهيه لنا الحاسدون

أحببتنا عشاقا أجمل ما حدث بيننا ذكريات سيتبناها يوما الروائيون

أحببتنا عشاقا ذراعينا ملائكة هذا الحب الطاهر قريبا سيحضنون

أحببتنا عشاقا كبارا في الحب صغارا بحبنا اليوم مفتخرون وغير ذلك لن نكون

وغير هذا من الصفحات فإنها بيضاء و سوداء كما أنجبتها المطبعة لأتمكن في النهاية من تحليل شخصيتها متيقنا من أنها امرأة قد عانت الخذلان بحياتها و أنها تبحث عن الحب الذي عرفته في طفولتها ذلك الحب الطاهر النقي فأرفع إلى الله يد الدعاء على أمل أن يجمعني مرة أخرى بها....

يوم آخر ينتهي بالخيبة مر شهر و لم نلتقي...أرجوك رياض دعني فلا رغبة لي بحضور السهرة...

هيا يا هشام كفاك تدللا سأعرفك على شابة تنسيك اسمك...و لنستمتع بشبابنا قليلا أولست أنت من جعلتني أحفظ مقاطع لامرئ القيس لشدة تكرارك قوله

اليوم خمر و غدا أمر

فهيا إذن دعنا ننسى قليلا هيا يا صديقي

رتب حقائبك مفرغا جوفها من ملابس الذكرى

و احمل جوازك ممزقا من أوراقه أسماء ما مضى

ثم اضبط ساعتك لوقت سيفنى

فعزاؤك في النسيان إن لم يمت شبح الماضي فانك ستموت لتكسب الجولة و كلاكما قتلى

دع المشنقة عنك و انظر إلى شمس الغد كيف ترعى أحلام من تفاءلوا البارحة بالفرحة

هنا البحر أزرق و إن قالوا عنه ميتا

هنا أرض الأجداد تلد كل ليلة أنثى

قف في محكمة العشق شامخا معتزا

لا تخشى قضاة الشوق ما هم سوى وهم

كوهم الإغريق بآلهة أثينا

حطم أصنامك بيدك و تبنى النسيان مذهبا كي لا تشقى

مرغما ذهبت معه إلى هناك حيث تصحو رغبات الرجال كلما هزت بخصرها إحدى النساء نبيذ أحمر و امرأة يضاهي جمالها ضوء القمر جاء بها صاحبي لتشاركني العشاء حتى لا تقاطعه في حديثه إذا ما شرع مبادرا حبيبته المغازلات...ثيابها و أفعالها و كل ما فيها راحت تقودني إلى بلقيس و ما قالته عن المرأة المتحررة على طريقة الغرباء...

قبِّلني على شفتيَّ

قالت...

قلتُ: يا ريتا...

أأرحل من جديد؟ -

و من تكون ريتا هذه ؟-

يتدخل رياض قائلا :

حبيبة درويش -

و من درويش أيضا ؟-

يضحك قائلا انه شاعر فلسطيني مشهور لا بد و أن طلبك هذا قد ذكره بتلك القصيدة ليرد عليك هشام بما جاء في متنها و بدل أن أؤكد لها قول صديقي تركتها مخذولة هناك لتتحقق ظنونها في وجود امرأة أخرى ترقد بقلبي...أعبر شوارع الظلام رفقة سيجارتي وصولا إلى ذلك المقعد البارد الوحيد الخالي مخرجا من جيبي كتابها الذي كان يرافقني طوال أشهر الغياب فتفتحه الرياح عند هذا القول

قلبي ليس كرسيا سيدي تقعد عليه كلما أرهقتك الدنيا لتغادره ساعة ما انقضى الضباب عن عالمك...خذ موقفا و كفاك عبثا فقد أرهقتني تناقضا كفاك لعبا فالعمر يمضي بي و يغزو ربيعي شيبا فإلى متى قل لي إلى متى ستظل هكذا طفلا و إلى متى سأبقى أما صبورة حبيبي أرجوك فلتكن و لو ليوم واحد رجلا و لتأخذ قرارا حاسما

كي يدب الأمل بقلبي فجأة وهو يخبرني بأن بلقيس تنتظرني...قلبي المتيقن من شيء كل الظروف تكذبه...

شجاري مع رياض بدا عنيفا كل ذلك لأني رفضت أن أكون لغير بلقيس مطيعا و مع ذلك لم يتقاعس في دعوتي إلى السيرك المقام وسط تلك الساحة أين و قفت وقفة المناجي للذاكرة الأولى قائلا

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي *** و هل يعمن من كان في العصر الخالي

ليمسكني رياض من يدي متأففا تعال يا امرؤ القيس تعال و كفاك بكاء على أطلال الغجرية تعال...

أسود...بهلوان...غناء...أفعال جنونية تلتها راقصة شرقية علقت عليها خلفي امرأة قائلة :

لراقصة الطرقات خفة

و لحفي أقدامها فتنة

الجمهور حولها في شهوة

يراقب الجسد الجائع بلذة

هي لقيتار الكبرياء تبتسم مكابرة

بعد أن وجدت حريتها في ستر نفسها منتهكة

أين بداخلها الحرائق اشتعلت

من على العالم بنظرهم قد تمردت

تلك التي شرفها بجسدها صانت

و عهرها للمارة أعلنت

لحاجتها إلى إعالة أهلها إذ غير ذلك السبيل ما وجدت

حتى وهبها الشارع صفة المتسولة بأغنية

و أعلنهم المنفقون بذريعة

رياض...رياض...إنها هنا أنا أعرفها من نبرة صوتها

كنت أعلم أن الراقصة ستعجبك..

أيها الأبله بلقيس خلفنا

من...لا...هل أنت متأكد ؟-

سمعت صوتها-

استدار رياض ليجد المقعد خالي

الآن قد بت تهدي يا صاحبي-

وقفت بين الجمهور الغاضب مني...كيف لا وقد حجبت عنهم

الرؤية لأنتبه إليها و هي تغادر خيمة السيرك بهدوء فأتبعها مسرعا مصطدما برجل هندي قوي البنية معتذرا بضم كفي إلى بعضهما و هز رأسي متمتما عبارات غير مفهومة...أخرج من الخيمة فأخالني أضعتها إلى أن ترمي لي بطوق ضحكتها الساخرة من طريقة حديث صديقتها مع ذلك البائع الأجنبي فأعزم ألا أضيعها ثانية كي أعيد الكرة مرة أخرى في السير خلفها متمتما بضع كلمات متحرشا بقلبها و حين لم تبدي أي ردة فعل قلت لها بأعلى صوت :

بلقيسُ

لا تتغَيَّبِي عنّي

فإنَّ الشمسَ بعدكِ

لا تُضيءُ على السواحِلْ ...

كي تستدير غاضبة

ما الذي تريده مني يا هذا؟ و كيف تعرف اسمي؟-

فأجيبها مستعينا بقول الشاعر ولي الدين يكن

ألا ما لسيدتي ناحبة * * * بروحي مدامعها الساكبة

يزداد غيظها فأسألها بما ورد في مقامة الحريري

يا من تلهب غيظه إذ لم أبح * * * باسمي له ما هكذا من ينصف

إن كان لا يرضيك إلا كشفه * * *فأصخ له أنا يوسف أنا يوسف

ثم اغني لها ضاحكا شيئا من أغنية شعرية قد التصق بذهني رنينها الأخاذ

أصابَكَ عشقٌ أم رُميتَ بأسهمِ

فما هذه إلا سجيّـةُ مُغــرَمِ

ماذا...ما الذي تقصده بأقوالك يا هذا ؟-

تضحك صديقتها ثم تتراجع بضع خطوات لتتمكن من الإجابة عن الاتصال الوارد بهاتفها ...

-ما قلته قصيدة لنزار و لا علم لي بأن اسمك بلقيس يا آنسة...يعلو وجنتيها الخجل و قبل الرد تهمس صديقتها...

بلقيس انه....أريد تلك العبارات التي كتبتها لي كي أقولها له تلك التي أطلقت عليها اسم حنين أتذكرين؟-

ألم تحفظيها ؟-

في الحقيقة لا -

هل هو على الخط الآن ؟-

لحسن حظي أنه قد أغلق الخط لكنه سيعاود الاتصال بعد عشر دقائق أرجوك أعيدي إملاءها علي-

تجيبها بتدمر شديد

ألا يكفيني أني أكتب لأجلك و الآن بات علي حفظ ما أكتبه، ثم أعادت إلقاء ما قالته يوم التقيتها بالبحر ليرفرف قلبي فرحا - كوني قد فهمت بأن تلك الخاطرة موجهة لخطيب صديقتها الملتحق بالجيش و أنها غالبا ما تستعين ببلقيس في مثل هذه الأمور..

كيف لك أن تكون واثقا إلى هذا الحد ؟ يسألني رياض-

فأخبره بأني دعوتها لكوب من الشاي بعد مغادرة صديقتها التي كان من المفروض أن تشاركها بقية يومها و أننا حال جلوسنا أخبرتها بأني متيقن من لقائنا قبل الساعة تلك لتفاجئني بتذكرها لي فقد كانت تعلم جيدا أني الشخص ذاته الذي انتقدها و جلس صامتا أمام البحر رفقتها...ثم أني أعدت لها روايتها لتنعتني بالمحتال إذ أنكرت أني أعرف اسمها و ها أنا ذا أملك الآن رقمها و حتى عنوان بيتها...

دق الباب عامل من متجر الورد تلبية لطلبي فتحت له بإمضاء الفاتورة و أنا أهم بإدخال الإكليل إلى البيت سعيدا مرددا

خَرَجَ الوردُ منْ حوضِه لملاقاتها،

كانتِ الشمسُ عُريانةً

في الخريفِ، سِوَى خَيْطِ غيمٍ على خَصْرِها.

هكذا يُولَدُ الحبُّ

في القريةِ التي جئتُ مِنْها.

هلا ساعدتني في وضع ربطة العنق...لبى رياض طلبي ثم جلس على الأريكة مبتسما فسألته:

كيف أبدو؟-

مذهلا يا أدونيس -

بل كان عليك أن تقول مجنون بلقيس يا صديقي فأنا لا أصدق أنها أخيرا قبلت طلب تقدمي لخطبتها و ضحكنا في طرقنا إلى بيتها ليلاقيني الارتباك على عتبة بابها بعد عام من معرفتي بها...استقبلني بلطف والديها كما حرص أن يبين لي مكانتها بالبيت شقيقها لتبث الرعب بقلبي فكرة تراجعها...إلا أنها قد أبدت بالقول الصريح موافقتها و اليوم هو يوم زفافنا و قد أقبلت على إخراجها من بيت والدها بكل شرف و عزة كي أختم على سنة الله و رسوله قصة حبي لها و ها أنا ذا أرقص معها سعيد بحضور أهلي و أهلها أهمس بأذنها ما يمليه علي قلبي لا ما قاله الشعراء كما عودتها

أحبك...أحبك-

فهذا أصدق ما يمكن أن أقوله لها

أما هي فتقول لي

ها هو الوقت ذا قد حان أهو صباح أو مساء

لا تسألني فبحضرتك أفقد بوصلة الزمان و المكان

في عينيك فقط أعثر على أبدية العشق اللامقروء عنه في كتب الكهان

بين راحتي يديك فقط أستورد الشوارع و الأحياء و أنا أمشي معك في قدر اللامكان

فوق صدرك وحده أتعلم لغة الحنان لأستحضر طفولتي و ما كان

حين كنت أغفو على وسادة كم تشبهك أدعوها حضن

والدي وحدها من وهبتني نفس الأمان

في هذه الرقصة التي نتشاركها على موعد غفلة من مخاوفنا

تحملني الذاكرة و هذه الرائحة و الباقة الزهرية إلى أولى مواعيدنا

لأتخيلني بحضرتك أقص على أحفاد سيأتون بعد أبنائنا

بيت قصيدة كان محورها شتائمنا التي لو لم تكن لما كنا

وما كانت لتكون بجمالية الأسطورة حكايتنا